الأستاذ الدكتور
أحمد مصطفى أبو الخير
جامعة المنصورة

موسوعة :

دروس في صناعة الحياة
١

أخلاق الفرعون كما حكاها القرآن الكريم وحديث عن منزلة هارون من موسى عليهما السلام

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧م

www.geocities.com/abu_elkher
www.askzad.com
abu_elkher@yahoo.com

مكتبة نانسي دمياط

هـاتف: ٢٤٠٨٥٥٣ - ٢٤٠٨٥٥٤ - ٣٢٣٣٦٩

فـاكس: ٠٥٧/٤٠٣٧٥٥

محمـول: ٠١٠١١٠٨٧١٩ - ٠١٢٧٥١٠١٠٦ - ٠١٠٤٢٠٢٤٥٠

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

أبو الخير، أحمد مصطفى.

موسوعة دروس في صناعة الحياة

أحمد مصطفى أبو الخير .-ط١.- دمياط:

مكتبة نانسي، ٢٠٠٧.

مج١؛ ٢٤ سم

المحتويات: أخلاق الفرعون كما حكاها القرآن الكريم

وحديث عن منزلة هارون من موسى عليه السلام

تدمك: ١ ٥٢ ٦١٨٦ ٩٧٧

١- الحياة الدينية

٢-الحياة (فلسفي) ٢٩١,٤٠٣

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٢٣٥٤١

الإهداء

إلى كل زوجة مؤمنة صابرة محتسبة ، إلى كل أخت تؤمن بالله والقرآن الكريم - مؤمنة مخلصة - نهدي إليها هذه الدراسة ، أن تكون قدوة الزوجة في التعايش مع زوجها آسية زوجة فرعون ، والنساء اللاتي كملن في هذي الدنيا (مريم ابنة عمران - خديجة بنت خويلد - فاطمة بنت محمد).

وإلى كل امرئ مؤمن أن تكون قدوته في هذه الحياة نبي الله ، موسى - عليه السلام - في التعامل مع أخيه هارون - عليه السلام - بالإيثار ، وليس بالأثرة ، بالموضوعية ، ليس بالهوى .

إن كل امرئ مؤمن بالله واليوم الآخر لمدعو أن يتعامل مع أخيه في الدم والنسب - وحتى في الدين والخلق - كما تعامل موسى الكليم مع أخيه ، عليهما السلام .

د . أحمد مصطفى أبو الخير

خادم اللغة العربية

تقدمة الكتاب

تتعرض الحياة الآن في شتى مناحيها وجوانبها وأطرافها وهوامشها إلى التدمير المتعمد الذي يصل أحايين كثيرات إلى ما يسمى بالأرض المحروقة ، بدءاً من الحروب التي تأتي على الأخضر واليابس ، تقتل وتدمر الحياة للبشر كل البشر ، ليس لأطراف الصراع - إن كان ثم أطراف ظاهرة واضحة للصراع - ولكن قتل ودمار لكل نفس لها نفس ونبض يدل على الحياة أية حياة ، وإذا قتلت أو أحييت تساءل معها كل البشر : (بأي ذنب قتلت ؟ بأي ذنب قتلت ؟ بأي ذنب قتلت ؟).

ليس هذا فقط ، بل تدك البيوت والعمائر والجسور والطرقات والشوارع على رءوس عمارها الساكنين ، وهم لا ناقة لهم ولا حمل وجمل في كل هذي الصراعات والحروب ،هذا ما يحدث أمام ناظرينا على الشاشات وعلى أرض الواقع ليل نهار صباح مساء ، بل آناء الليل وأطراف النهار ، في العراق وفلسطين وأفغانستان ولبنان ، والبقية لعلها تأتي في البعيد أو القريب .

ليس الحروب فقط ورزاياها ومصائبها التي تنزل على رءوس الناس الفقراء الضعفاء ، بل الأمراض القاتلة المميتة وإغلاق سبل العيش الكريم أمام الناس الذين لا يبغون غير قوت يوم بيوم ، ومعافاة في البدن ، وأمان في سربهم وعزلتهم ، لكنهم لا يجدون من هذا شيئاً ، بل على العكس يجدون المترصدين لهم في كل طريق وسبيل يريدون منه فقط الحياة ، الحياة ، مجرد الحياة فقط .

ناهيك عن الانهيار الخلقي ، ومحاربة كل القيم الإنسانية البادهة النبيلة التي بنتها البشرية على طول تاريخها ، بل ومحاولة اختراع قضايا هامشية ، أو مضللة ،

أو لا وجود لها ، مثل الدعوة إلى عدم زواج الصغيرات ، وهل الكبيرات الآن يجدن زواجا حتى تجد الصغيرات قبلهن ... إلخ .

ليس هذا كله فقط ، بل هناك أيضا مشكلات البيئة والتلوث والبطالة ، وعدم كفاية المرافق والبنية الأساسية اللازمة لحياة البشر ، و.... ، و.... ، إلخ من هذي المشكلات والمعضلات والبلايا والمصائب التي تصب على رءوس الناس صباح مساء ، حتى جهر بعض الجاهرين بأن كل هذي العذابات مصنوعة مقصودة متعمدة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . وعلى الجانب الآخر ترف وسرف وتبذير ، وسعار في الاستهلاك لا نظير له في التاريخ البعيد أو القريب .

وفي هذه الحالة التي تتعرض البشرية إلى صفوف من المشكلات والعذابات نتطلع إلى القرآن الكريم نستلهم منه النصح والرشد والخلاص ، خاصة في الجانب القصصي منه ، وقد اخترنا ـ الآن ـ من هذا القصص ما حكاه القرآن العظيم عن أخلاق الفرعون ، حتى يتجنبها كل مؤمن ومؤمنة ، جعلنا أسوة كل مؤمنة آسية امرأة فرعون ، نموذج مهم لتعايش الزوجة الصابرة المحتسبة مع زوج هو الفرعون ، ومع هذا عاشت معه ، وجهته في مواقف مفصلية نحو الحق والصدق والصواب ، كما سيأتي في الكتاب . وفي العلاقة الحميمة بين هارون وموسى نموذج بشري مهم للعلاقة بين الأخوين ، حيث الإيثار ، ليس الأثرة ، ولا الأنانية ، وحيث الموضوعية ، وليس الهوى والضغائن والأحقاد التي لا تموت مع الزمن .

وهكذا أخي القارئ وأختي القارئة ، هيا بنا نتعلم من أخلاق الفرعون أن نتجنبها ، وأن نفر منها فرارنا من القسورة ـ الأسد ـ نتعلم من آسية كيف تتعايش الزوجة مع زوجها ، ويتعلم الأخ كيف يتعامل مع أخيه متأسيا بعلاقة هارون مع

أخيه ـ عليهما السلام ـ نتعلم من كل هذا لتكون دروسا لنا في هذي الحياة الصعبة الشائكة حتى نفوز بعيش هانئ في الدنيا ورضا الله ونعيم مقيم في الآخرة والأبقى .

والسلام عليكم ورحمة الله

أحمد مصطفى أبو الخير

خادم العربية

القرآن الكريم معين لا ينضب ، نهر دفاق بالخير والهدايات ، لا يخلق على كثرة الرد ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا تنقضي أبد الدهر عجائبه ، قال سيد الأولين والآخرين : (أما بعد ، أيها الناس ، إنما أنا بشر ، يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيبه ، وإني تارك فيكم الثقلين ، أحدهما كتاب الله ، فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله ، واستمسكوا به) فحث على كتاب الله ، ورغب فيه ، ثم قال : و(أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي ، قالها ثلاثا [1] .

ومن ثم فإنه عندما تشتد الحرب وتستعر ويتوحش أوارها ، ليس ضد الشيوعية ولا ضد الإسلام ، ولا ضد الدين ولا ضد الدكتاتورية والاستبدادية ، ولا ضد الفقر ، ولكن في المقام الأول ضد الإنسان الفقير نفسه في المقام الأول والرئيس والأهم والأساس .

ليس لزيادة فقره ، أو استغلاله لمصالح المترفين الأغنياء ، لكن لاجتثاث أصله وفصله وجذره ، لاستنصال نسله والقضاء المبرم بلا رحمة على من بقي منهم ديّارا على هذه الأرض .

نرجع إلى القرآن الكريم لنرى كيف حكى قصة فرعون ، خاصة الصغار منهم لنرى كيف يتعامل معنا - نحن الفقراء - من يتولى شيئا من السلطة على مجتمعنا ، أو على أي عدد من خلق الله الذين رزئوا بإدارته ، إذا ساروا في مرءوسيهم سيرة الفرعون . وسوف نحكي قصة فرعون كما جاءت في الكتاب العزيز - لنقول :

وردت كلمة (فرعون) في الكتاب ٧٤ مرة ، بطبيعة الحال وردت غير محلاة بالألف واللام ، كما أنها لم ترد مثناة ولا مجموعة البتة ، فرعون فقط ، وليس

---

(١) الطبراني : المعجم الكبير ، حديث رقم ٥٠٢٨ .

(الفرعون) ولا (فرعونان) ولا (فراعين) إذ المقصود فرعون الذين كان في مصر ، لماذا وردت هذي القصة في الكتاب العزيز ؟ سؤال له إجابة في موضعها .

وقعت لفظة فرعون [1] في ٢٦ سورة من مجموع السور = ١١٤ سورة ، أي وقعت في أكثر من ربع السور ، وإن كان عدد المواضع التي ذكرت فيها اللفظة يختلف من سورة إلى أخرى بدءا من موضع واحد إلى موضعين إلى ثلاثة إلى خمسة إلى ستة ، ثم إلى ثمانية ، ثم إلى تسعة .

جاءت لفظة فرعون تسع مرات في سورتي (الأعراف - غافر) ثماني مرات في القصص ، ست مرات في سورتي (الشعراء - يونس) ثلاث مرات في كل من (الأنفال - هود) ثم جاءت مرة واحدة في ١٣ سورة .

ملاحظة بادهة أولية أن السور الست والعشرين التي جاءت فيها لفظة (فرعون) جاءت في غالبيتها العظمى سوار مكية ، أربع سور منها فقط كانت مدنية وهن سور : (البقرة - آل عمران - الأنفال - التحريم) من أصل ٢٦ سورة وقعت فيها اللفظة .

ومن ناحية أخرى فإن هذي السور الأربع لم نجد فيهن (فرعون) إلا ثلاث مرات ، لا أكثر ، كما في (الأنفال) أو مرتين ، كما في البقرة والتحريم ، وفي آل عمران - وهي مدنية - جاءت اللفظة مرة واحدة فقط ، ليس إلا .

في حين نجدها وقعت ٩ مرات ، ٨ مرات ، ٦ مرات ، ٥ مرات في سور كلها مكية ، وفي الآيات المكية فقط ، فهذي السور المكية التي تتضمن آيات مدنية أو غير مكية لم نجد فيها (فرعون) ولو لمرة واحدة .

---

(١) راجع عبد الباقي : المعجم المفهرس ، ص ٥١٥ - ٥١٦ .

الآيات المتنزلة على محمد - صلى الله عليه وسلم - في مكة إذن هي التي حكت بشكل رئيس قصص الفرعون ، حيث كانت تتبدى أمام أنظار المؤمنين في مكة الفراعين عيانا بيانا جهارا نهارا ، يتفننون في تعذيبهم ويفتنونهم في دينهم وعقيدتهم ، من أمثال : (أبي لهب - أبي جهل - عقبة بن أبي معيط) ... الخ .

القرآن في مكة كان يبني العقيدة في قلوب المؤمنين ، ومن مفردات هذي العقيدة تصدي الفراعين لهذا النور ، القسوة والجبروت والفرعونية ، ومن ثم قص القرآن ما قص ، ونشير إلى بعض اقتباسات من مفسرين محدثين يشيرون إلى بناء العقيدة في السور المكية .

ففي ظلال القرآن [1] تشير سورة غافر التي ذكر فيها (الفرعون) تسع مرات إلى (مصارع الغابرين) قبل مؤمني مكة (مقدمة لعرض جانب من قصة موسى - عليه الصلاة والسلام - مع فرعون وهامان وقارون ، تمثل موقف الطغيان من دعوة الحق ، وتعرض فيها حلقة جديدة ، لم تعرض في قصة موسى من قبل ، ولا تعرض إلا في هذه السورة ، وهي حلقة ظهور رجل مؤمن من آل فرعون ، ومن ثم تسمى السورة أيضا بسورة المؤمن ، كما أن في هذا إشارة إلى أن الله سوف يهيئ لهم من قوم فرعون من يدفع عنهم ، ويدافع عنهم .

هذا المؤمن من آل فرعون كان : (يدافع عن موسى عندما هموا بقتله ، ويصدع بكلمة الحق في تلطف وحذر في أول الأمر ، ثم في صراحة ووضوح في النهاية ، ويعرض في جدله مع فرعون حجج الحق وبراهينه قوية ناصعة ، ويحذرهم يوم القيامة ... ويذكرهم موقفهم وموقف الأجيال قبلهم من يوسف - عليه

(١) سيد قطب ٧ / ١٢٦ .

الصلاة والسلام ـ ورسالته ، ويستطرد السياق بالقصة حتى يوصل طرفها بآخره ، فإذا هم هناك ، وإذا هم يتحاجون في النار ، وإذا حوار بين الضعفاء وبين الذين استكبروا ، وحوار لهم جميعا مع خزنة جهنم يستغيثون بهم ، ويطلبون منهم الخلاص، ولات حين خلاص أو مناص، وفي ظل هذا المشهد يوجه الله رسوله (ﷺ) والمؤمنين معه في مكة ـ (إلى الصبر والثقة بوعد الله الحق ، والتوجه إلى ربه بالتسبيح والحمد والاستغفار) .

وهناك اقتباس آخر من تفسير الميزان للطباطبائي [1] في مفتتح تفسيره لسورة الأنعام ، وهي أول سورة مكية في ترتيب المصحف من (الفاتحة والبقرة وآل عمران ... إلى المعوذتين ، وانتهاء بسورة الناس) .

يقول الطبابائي : (غرض السورة هو توحيده ـ تعالى ـ بمعناه ، الأعم ، أعنى أن للإنسان ربا هو رب العالمين جميعا ، منه يبدأ كل شيء ، وإليه ينتهي ويعود كل شيء ، أرسل رسلا مبشرين ومنذرين ، يهدي بهم عباده المربوبين إلى دين الحق ، ولذا نزلت معظم آياتها في صورة الحجاج على المشركين في التوحيد والمعاد والنبوة ، واشتملت على إجمال الوظائف الشرعية والمحرمات الدينية) هي قضية التوحيد إذن والحجاج على المشركين في التوحيد والمعاد والنبوة ، في سورة الأنعام المكية ، وفي سائر السور المكية الأخرى .

والآن بعد هاتيك التقدمة ندخل إلى صلب الموضوع وبنيته الرئيسة ، فنذكر أن عناصر هذه القصة بالغة الأهمية في حياة المسلمين المستضعفين في مكة ، وفي أي مكان آخر قبله أو بعده .

---

(١) ٧ / ٥ .

العنصر الأول - الهدف من القصة : عندما حكى القرآن الكريم هذه القصة لم يك هذا لمجرد الحكي والقص والترويح عن النفس ، إنما يصرح الكتاب الكريم في أكثر من موضع بحقيقة الأمر وأسِّه وأساسه :

- إن هذا لهو القصص الحق ، وما من إله إلا الله [١] .
- فاقصص القصص لعلهم يتفكرون [٢] .
- نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن [٣] .
- لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون [٤] .

هذا الهدف من القصص جملة وجلة ، لكن في قصة فرعون قال رب العزة : (ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون ، وجاءهم رسول كريم [٥]) اختبار هو إذن أو ابتلاء لقوم فرعون ، أن أرسل لهم هذا الرسول الكريم موسى - عليه الصلاة والسلام - ليرى ما هم صانعون فاعلون معه ، وبالفعل رسبوا بالرقعة والثلث في هذا الاختبار ، والراسبون بجدارة هنا هم قوم فرعون ؟ .

كيف ؟ ماذا صنعوا مع نبيهم الكريم : (كذبت قبلهم [٦]) قبل مشركي مكة ، أو كما فعل مشركو مكة (قوم نوح وعاد وفرعون) كلهم كذبوا برسلهم ، فماذا كان جزاؤهم ؟ هذا ما سطرته آيات عديدة ، سوف نعود إليها لاحقا .

---

(١) ٦٢ آل عمران .
(٢) ١٧٦ الأعراف .
(٣) ٣ يوسف .
(٤) ١١١ يوسف .
(٥) ١٧ الدخان .
(٦) ١٢ ص.

وهذا ما يقوله القرآن لمؤني مكة ورسولهم ، كما حاق بفرعون وقومه من الإهلاك والإغراق في النهاية ، فإن صناديد قريش المتفرعنين سيحيق بهم ما حاق بفرعون ومن معه ، وعد من الله لا يُخلف ، ولا يخلف .

العنصر الثاني ـ التعريف بفرعون : من هو هذا الرجل ومن يكون ؟ إن أبرز هذي الصفات والنعوت والأوصاف (وفرعون ذو الأوتاد [1]) فما المقصود بهذا التعبير والتوصيف ؟ الأوتاد هنا مثبتات ملكه ، من جند وخدم وحشم وسحرة ومضللين ، وقد أجمل ما سبق أحد المتحدثين العسكريين في فضائية عربية بأن الظالم يحتاج مثبتات أربعة ـ أو أربع ـ هن : (جيش رادع ـ إعلام خادع ـ بطن جائع ـ شعب خاضع [2]) أو خانع .

ومن أهم مثبتات الملك المال ، وكان هذا وفيرا فياضا مثل نهر النيل العظيم ، يقول رب العزة بعد غرق فرعون ومن معه : (كم تركوا من جنات ونعيم ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها [3] فاكهين) فهل يطمح امرؤ أو يطمع في شيء أكثر من هذا ، أو في شيء كهذا ، حدائق ونعيم ، زروع ومقام كريم ، مساكن أنيقة متأنقة ، وأماكن ومتنزهات حسنة جميلة مجملة متألقة [4] ، صورة لمصرنا نتمنى أن نراها مرة أخرى ، ليس هذا على رب العزة ببعيد .

وفي آية أخرى : (وقال موسى : ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا [5] ...) ليس الأموال الكثيرة الجزيلة ، بل أموال طائلة ، لا أول لها ،

---

(١)١٢ ص ، ١٠ الفجر .
(٢) في العبارة بعض التصرف .
(٣) ٢٥ : ٢٧ الدخان .
(٤) تفسير ابن كثير ٤/٤١/٠ .
(٥) ٨٨ يونس .

ولا آخر ، هذا واحد فقط من ملأ فرعون قدر القصص القرآني ثروته الطائلة بتعبير لا مثيل له ولا نظير (وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة [1])

أعطاه أموالاً ؟ كلا ، ثروات ؟ أعطاه كنوزا ، مفاتيحها فقط ، المفاتيح فقط يثقل حملها على العصبة - الجماعة - من الرجال الأشداء ذوي القوة ، فما بالنا بالكنوز والخزائن ذاتها .

العنصر الثالث - إرسال موسى إلى فرعون : لماذا يرسل الله الرسل ، وتقوم المعارك الطاحنة بين المؤمنين وبين المعاندين ؟ هذا اختبار للناس وامتحان ، كما سبق .

هذا شيء ، والشيء الآخر أن البشرية تكون قد تاهت ، فضلت وأضلت ، ومن ثم يأتي الهدى الإلهي بإرسال رسل الله - عز وجل - إلى المخاليق والعبيد ، وهذا ما كان على أيام فرعون ، وعند بعثة المصطفى (ﷺ) هذا القرآن الكريم يحكي عن الظلم والفسق والإفساد ، ثلاثي وبيل مدمر للبشرية ، وإن كان مفيدا جدا للأغنياء والمترفين المرفهين .

هذي بضع آيات تحكي أسباب إرسال نبي الله موسى ، عليه الصلاة والسلام :

١- وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه ، إنهم كانوا قوما [2] فاسقين .

---

(١) ٧٦ القصص .
(٢) ١٢ النمل .

٢- ... إلى فرعون وملئه ، إنهم كانوا قوما فاسقين [١].

٣- ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ، فظلموا بها ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين [٢].

إذن فشا الظلم والفسق والإفساد في قوم فرعون ، وفي ملئه ، فما الفرق بين القوم والملأ ؟ ملأ الملك كل من حوله من الحاشية والمقربين المنتفعين ممن يتحلقون حوله ، أما القوم فهم الرعية والشعب ، ومن يتولاهم الملك ويتسلطن عليهم ويتأمر .

إذن ملأ فرعون هم المتحلقون حوله إلى جانبه ، جاء في القرآن الكريم على لسان فرعون متعجبا من كلام نبي الله موسى - عليه الصلاة والسلام : (قال لمن حوله ألا تستمعون ؟! [٣]) أي إلى كلام موسى ، وفي ذات السورة ، ونفس الحوار يقول فرعون بعد ما رأى الآيات من موسى يَسِمه بالسحر : (قال للملأ حوله : إن هذا لساحر [٤] عليم) .

انتهينا إذن من التفرقة بين ملأ فرعون وقومه ، والآن نبدي ملاحظة عابرة عجلى حول صيغة اسم الفاعل (مفسدين) لنلحظ أن المشتق جاء من الفعل الرباعي (أفسد) وليس الثلاثي (فسد) ؟ الواقع أن اسم الفاعل من الثلاثي - أي فاسد - لم يقع في القرآن ، وهذا من الطريف العجب العجاب ، إنما جاء من الرباعي المهموز أوله فقط ؟ فقط فقط .

---

(١) ٣٢ القصص .
(٢) ١٠٣ آل عمران .
(٣) ٢٥ الشعراء .
(٤) ٣٤ الشعراء .

جاء في الآيات (المفسد) مفردا مرة واحدة (والله يعلم المفسد من المصلح [1]) وفي الجمع جاءت الكلمة ٢٠ مرة ، ومن هنا يمكن أن نستنتج ما يلي :

١- إن الفساد لا يصنعه فرد ما ، مهما كانت قوته ، ومهما كان جبروته ، ومهما كانت سطوته ، وإنما يتولى صنعه وحياكته فريق أو جماعة من الناس ، فإن فردا فاسدا واحدا لا يتمكن من هذا الإفساد، إلا إذا شاركه آخرون ، ولذا قال القرآن : (إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين [2]) ليس فرعون وحده هو المخطئ الخاطئ ، وزيره ومستشاره ومعينه والجند من حولهما ، كل هؤلاء خاطئون ، خاطئون خاطئون .

٢- إن الدنيا والأمور والإدارة والإمارة لا تفسد وحدها ، وإنما يفسدها المفسدون الظالمون :

نعيب زماننا والعيب فينا ... وما لزماننا عيب سوانا

الفساد والاختلال والاضطراب واختلال النظام على الأرض لا يأتي وحده ، إنما يأتي بفعل فاعل ، أو بأفعال فاعلين قاصدين عامدين مدركين واعين ، لأنهم لا يعيشون ولا يسمنونَ ولا يتخنون ولا يتتخنون إلا في جو من الفساد الذي نسجوا بأفكارهم وبأيديهم خيوطه وخطواته .

العنصر الرابع - موقف فرعون من رسالة موسى: قبل أن نتحدث عن موقف فرعون من رسالة نبي الله موسى - عليه الصلوات من الله والسلام - نشير إلى أن هذي الرسالة لم تك آتية أو جانية من بشر أو مخلوق من مخاليق رب العزة ، بل هي

---

(١) ٢٢٠ البقرة .
(٢) ٨ القصص .

من رب العالمين ، رب العالمين ذاته ، في الكتاب المكنون : (وقال موسى ، يا فرعون : إني رسول من رب العالمين ، حقيق علي أن لا أقول على الله إلا الحق ، قد جئتكم ببينة من ربكم ، فأرسل معي بني إسرائيل ... [١]).

نعم حقيق على نبي الله وجدير به أن لا ينقل عن ربه غير الحق ، إنه لا يمكن أن يكذب على ربه البتة ، فماذا أجاب فرعون الرسول ؟ قال : (إن كنت جئت بآية فأت بها، إن كنت من الصادقين[٢]) واستجاب موسى - عليه الصلوات والسلام : (فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين) .

يا فرعون ، هذي هي الأدلة والآيات على صدق الرسول إليك ، ولكن الملأ من حول فرعون كان لهم رأي آخر ، أو رد آخر على ما جاء به النبي من الآيات المعجزات : (قال الملأ من قوم فرعون : إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم [٣] ...) وهكذا رضخ فرعون لرأي حاشيته وانحاز لما زعموا زورا وبهتانا .

وهذا ما يشير ويؤشر إلى دور الحاشية الملتفة حول الإدارة في كل بلد وفي كل مؤسسة ، وفي كل رجا وركن من أركان الدنا - جمع دنيا - هذي الحاشية المستفيدة المنتفعة المنتفخة من كل فساد ومن كل إضرار بالبلاد والعباد هي التي تودي وتهلك المسئول الكبير الذي يرى أنه صاحب الحول والطول والصول في حين هو - في الحقيقة - ألعوبة سهلة في يد الحاشية المحيطة ، والتي تفرش له الطريق إلى جهنم - وبئس المصير - بالورود والرياحين، إذ هي تحرس هذا المسئول الصغير أو الكبير من طريق الحق أن يقترب منه أو حتى أن يتناوشه من مكان بعيد أو حتى

---

(١) ١٠٤ ، ١٠٥ الأعراف .
(٢) ١٠٦ الأعراف .
(٣) ١٠٩ ، ١١٠ الأعراف.

قريب ، تحرص كل الحرص على فوز هذه الإدارة بسخط الرب - جل وعلا . والبعد التام عن رضا الناس أو أي أمل في العمل على صلاحهم ، بل الحرص المستميت على إفساد كل شيء .

والآن نتساءل ماذا كان رد فعل الفرعون على موسى ، عليه الصلوات والسلام ؟ إن هذا الرد تمثل في عدة أشياء ، هي :

- التكذيب

- العصيان

- وثالثة الأثافي ، وقاصمة الظهر والعظم إنكار رب العالمين ، بل ادعاء الألوهية ، كيف هذا كله ؟ ذاك ما فصلته آيات الكتاب ، كما يلي :

١- التكذيب :جاء في سورة القمر[١] : (وَلَقَدْ جَاء آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ). آل فرعون هم الذين كذبوا؟ كلا، ففي سورة[٢] الحاقة : (وَجَاء فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ) فما (المؤتفكات) ؟ الأمم المكذبة بالرسل، معنى هذا أن الكل ، كل الأمم ، قبل فرعون قد جاءت (بالخاطئة) أي التكذيب لمن أرسل إليهم ، فإذا كان كفار قريش قد كذبوك يا سيد الخلق ، فقد كذّب فرعون ومن كان قبله .

وهكذا يقص القرآن الكريم عن فرعون وما كان منه تثبيتا لقلب محمد (ﷺ) وقلوب المؤمنين الملتقين المتحلقين حوله ، جاء في سورة القمر ، وفي سياق الحديث عن الفرعون ، جاء الخطاب المتحدي لكفار قريش المكذبين المعاندين : (أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ) فرعون ومن كان قبله (أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ ، أَمْ يَقُولُونَ

---

(١) ٤١ ، ٤٢ .

(٢) ٩ .

نَحْنُ جَمِيعٌ مُنتَصِرٌ؟) تفحمهم الآيات : (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ، بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ) وتستمر الآيات مهددة متوعدة : (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ، يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ، ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ .. وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) وتختم السورة [1] بجزاء المؤمنين المتقين : (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ، فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ) .

إذن كفار قريش ليسوا وحدهم مَنْ كذب الرسل ، فرعون ومن قبله فعلوا الشيء نفسه عينه وذاته ، في سورة ق : (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ) قبل كفار قريش ، من هؤلاء قبلهم ؟ (قَوْمُ نُوحٍ ، وَأَصْحَابُ الرَّسِّ ، وَثَمُودُ ، وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ، وَإِخْوَانُ لُوطٍ ، وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ، كُلٌّ) كل هؤلاء (كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ[2]).

القرآن الكريم قدم تعبيرا ملفتا لافتا عن تكذيب هؤلاء الأقوام ؟ في سورة البروج : (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ) .

انظر كيف عبر الكتاب المكنون، عن تكذيبهم؟ إنهم لم يُكذبوا ليسوا مكذبين ، بل هم في تكذيب ، التعبير يبدأ بأداة الإضراب (بل) وتنبيه للقارئ أو السامع ، قف واحترس ، هؤلاء الكفار (في تكذيب) شأنهم وحقيقة أمرهم أنهم يصبحون ويعيشون في هذا التكذيب [3].

وفي الميزان : في الآية إضراب عما تقدم من الموعظة والحجة ، من حيث الأثر ، والمعنى : لا ينبغي أن يرجى منهم الإيمان بهذي الآيات البينات ، فإن الذين

---

(١) القمر .
(٢) ١٤ ق.
(٣) في ظلال القرآن ٥٣٢/٨ .

كفروا مصرون على تكذيبهم ، لا ينتفعون بموعظة أو حجة ، ومن هنا ظهر أن المراد بكون الذين كفروا في تكذيب ، أي بظرفية التكذيب ، لهم إصرار عليه [1] .

انظر أيها القارئ : إن هؤلاء مستغرقون في التكذيب المحيط بهم ، من كل جانب منهم، من فوقهم ومن تحتهم، أمامهم خلفهم ، عن اليمين وعن الشمال.. إلخ ، ولذا ناسب أن يأتي بعدها بشكل مباشر متابع ومتتابع (وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيط)[2] إنهم لا يعجزون الله إذ هو محيط بهم ، قادر عليهم .

٢ـ العصيان : ولم يكتف كفار كل عصر بتكذيب الرسل ، بل تعداه إلى العصيان والتحدي ، قال رب العزة (إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً) فماذا صنع فرعون وغيره من المكذبين ؟ (فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً[3]) .

٣ـ إنكار الربوبية وادعاء الإلوهية : يحكي القرآن الكريم : (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ [4]) يقول تعالى مخبرا عن كفر فرعون وتمرده وطغيانه وجحوده في قوله : (وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟) وذلك أنه كان يقول لقومه [5] : (ما علمت لكم من إله غيري) .

إن فرعون لم يكتف بإنكار أو استنكارها، بل تعدى الأمر إلى ادعاء الألوهية، بل التبجح بادعاء أنه لا إله غيره ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

---

(١) ٢٠/٢٨٤ .
(٢) ٢٠ البروج.
(٣) ١٦ المزمل.
(٤) ٢٣ الشعراء .
(٥) تفسير ابن كثير ٣/٣٣٢ .

العنصر الخامس ـ صفات الفرعون ومن معه : كما أوردها قرآننا الكريم ، وهذا هو العنصر الأهم والأساس والرئيس في دراستنا ، هذي الصفات هي :

أولا ـ غياب الرشاد : قال ربنا : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ، وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ [1]) أول صفة نذكرها هنا هو أن أمر فرعون ليس برشيد على الإطلاق .

يقول الطباطبائي : (والرشيد فعيل من الرشد ، خلاف الغي ، أي وما أمر فرعون بذي رشد حتى يهدي إلى الحق ، بل كان ذا غي وجهالة ، وقيل الرشيد بمعنى المرشد ، وفي جملة : وما أمر فرعون برشيد ، وضع الظاهر وضع المضمر والأصل ـ أمره ـ ولعل الفائدة فيه ما يفيد اسم فرعون من الدليل على عدم رشد الأمر ولا يستفاد ذلك من الضمير البتة [2]) .

ثانيا ـ الخطأ والبعد عن التوفيق : أمر فرعون ليس برشيد ، ليس هذا فقط ، وليس فرعون فقط هو المخطئ ، بل كل من أحاط به ، وتجند له ، ففي الكتاب الكريم : (إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ [3]) .

لقد حذروا ورتبوا وخططوا ، ولكن الله أراد أن يربي موسى ـ عليه السلام ـ في بيت فرعون نفسه ، وهكذا قال الله ـ تعالى ـ من قبل هذي الآية الأخيرة : (وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ [4]) .

---

(١) ٩٦ هود .
(٢) الميزان ٣٦٩/١٠ .
(٣) ٨ القصص .
(٤) ٦ القصص .

لقد أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى ، فما نفعه من ذلك ، مع قدرة الملك العظيم الذي لا يخالف أمر القدر ، بل نفذ حكمه ـ جلت قدرته ـ وجرى قلمه في القدم بأن يكون هلاك فرعون على يديه ، بل يكون هذا الغلام الذي احترزت ـ يا فرعون ـ من وجوده ، تحاشيت هذا الوجود تحاشيا ، قتلت بسبب هذا الكلام ألوفا من الولدان الذكران، لكن شاء ملك الملوك ـ ولا راد لمشيئته ـ أن يكون منشأ موسى ومرباه على فراش فرعون وتحت جدران داره وسُقُفها ، غذاؤه من طعام الفرعون ، يربيه ويغذُوه ويغذّيه ويتفداه ويفتديه ، وهلاكه وهلاك جنوده على يديه لتعلم ـ يا فرعون ، ويا كل الفراعين ويا كل الناس ـ أن رب السماوات العلا هو الغالب القاهر العظيم القوي العزيز الشديد المحال ، الذي ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، هو وحده صاحب كن فيكون [1] إذ بيده وحده مقاليد السماوات والأرضين ، وهذا ما ينبغي أن يقر في ذهن كل مؤمن بالله موحد، خاصة من يتعامل أو يجابه الفراعين ، سواء أكان الفرعون صغيرا أو حقيرا ، أو تافها أو كبيرا .

ثانيا ـ د أ ب آل فرعون ومن كان قبله ، ومن جاء بعدهم ، ما هو ؟ هذا التركيب (د أ ب آل فرعون ومن قبلهم) تكرر في القرآن الكريم مرات ، هن ثلاث :

ـ (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَونَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ)[2] .

ـ (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ)[3] .

---

(1) ابن كثير ٣ / ٣٨٠ .
(2) ٥٤ الأنفال .
(3) ٥٢ الأنفال .

- (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ) [1] .

على أن لفظة (دأب) وردت في موضع رابع من التنزيل ، لم تنص صراحة على آل فرعون ، وإن شملتهم أيضا أيضا ؟ ليس هذا فقط ، ولكنها أيضا أيضا جاءت على لسان مؤمن آل فرعون الذي يصور النهاية الحتمية للكافرين المعاندين :

- وقال الذي آمن [2] : يا قوم ، إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ، مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود ، والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلما للعباد [3] .

أي أن مؤمن آل فرعون كان على علم بما حدث للأولين وما سيحدث للآخرين ، وكان محقا في كل ما قال ، وسوف نفصل الحديث عنه في سطور لواحق.

على أية حال ما هو الشيء الذي دأب عليه آل فرعون ومن قبلهم ؟ إنه :

- التكذيب بآيات ربهم .
- الكفر بآيات الله وجحدها .
- كلهم كانوا ظالمين .

فماذا كان جزاؤهم ؟ :

- أهلكهم الله بذنوبهم ، وخص آل فرعون بالإغراق .
- أخذهم الله بذنوبهم ، أي بسبب ذنوبهم ،

كما أشارت الآيات إلى الحقائق الآتية :

- إن الله قوي شديد العقاب .

---

(١) ١١ آل عمران .
(٢) أي من آل فرعون .
(٣) ٣٠ ، ٣١ غافر .

- وبرغم هذا لا يريد الله ظلما بالعباد .

لكن الملاحظ أن تعبير (كدأب آل فرعون) في الآيات الثلاث لم يتكرر في الآية الأخيرة ، أو قل في الموضع الرابع الذي جاء فيه : (مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود ، والذين من بعدهم) الأمر اختلف في الآية الأخيرة ؟ في :

- استخدام كلمة (مثل) بدل الكاف في : (كدأب آل فرعون ...)
- استخدم (دأب قوم نوح ...) ولم يقل (دأب آل نوح ...) فقد ارتبطت كلمة (آل) بفرعون فقط .
- في الآيات الثلاث الأولى حديث عما حدث لآل فرعون ومن قبلهم ، وفي الموضع الأخير حديث عما حدث لقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم ، في مقابل (من قبلهم) في الآيات الثلاث .

إن السبب في هذي الاختلافات أن الموضع الرابع كان حديث مؤمن آل فرعون ، إنه واحد منهم ، من هذا الآل ، ومن ثم فهو يحذرهم من مصير الأقوام التي سماها ومن جاء بعدهم ، أو من سيجيء بعدهم ، وما توقعه كان وتحقق بالفعل .

على أية حال فقد وقعت (آل فرعون) في القرآن أربع عشرة [١] ، ومعنى آل فرعون أتباعه [٢] وأشياعه ، الذين اتبعوه وشايعوه في تكذيبه وكفره وجحوده ، حتى أغرقوا معه ، وهلكوا بهلاكه ، قال تعالى : (ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب [٣] أي ادخلوا أتباعه .

(١) معجم ألفاظ القرآن الكريم ١/١٠٠ .
(٢) المعجم الكبير ١/٦٢١ .
(٣) ٤٦ غافر .

وقد دأب القرآن العظيم على أن يطرق أسماء المؤمنين الأولين في مكة حتى يعلم هؤلاء الصابرين المحتسبين أن ما يحدث لهم على يد عتاة المشركين في مكة من تكذيب وتعذيب واضطهاد هو عين ما حدث للمؤمنين قبلهم عبر الأجيال والقرون ثم كان عاقبة هؤلاء الطغاة كما كانت عاقبة فرعون ومن قبله ومن بعده ، الهلاك الهلاك ، ليلقي بهم جميعا في مزابل التاريخ ، إن قبلتهم هاتيك المزابل ، وأمنت من تدنيسهم .

ثالثا ـ الظلم وغياب التقوى : من الصفات التي نسبت إلى قوم فرعون الظلم والبعد عن التقوى، قال تعالى : {وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ، أَلا يَتَّقُونَ[1]} .

القوم الجماعة من الرجال والنساء معا ، والجمع أقوام[2] ، فقوم فرعون جماعته من الرجال والنساء الملتفين حوله ، الذين يؤازرونه على ظلمه ويشتركون منه في هذا الظلم ، وعليه فإن الظلم في هذي الدنيا لا يستقيم ولا يقوم ولا يشتد عوده بفعل فرد واحد مهما علا طغيانه ، واشتدت وطأته ، بل لابد وراءه جماعة أو حاشية سوء تؤدي إلى فرعنة الفرعون .

وفي تفسير الآيتين السابقتين ننقل مقتبسين ما جاء في الميزان : (واذكر) يا محمد (وقتا نادي فيه ربك موسى وبعثه بالرسالة إلى قوم فرعون ... أن انت القوم الظالمين ، نوع تفسير للنداء ، وتوصيفهم بالظالمين ، ثم بيان ثانيا بقوم فرعون ، إشارة إلى حكمة الإرسال ، وهي ظلمهم بالشرك وتعذيب بني إسرائيل ... وقوله : ألا

---

(١) ١٠ ، ١١ الشعراء

(٢) القاموس المحيط ١٦٥/٤ .

يتقون ، بصيغة الغيبة ، وهو توبيخ منه - تعالى - لهم) وهو (في معنى قولنا : قل لهم) يا موسى : (إن ربي يوبخكم على ترك التقوى ، ويقول : ألا تتقون) .

رابعا - الطغيان : وصف فرعون وحده بالطغيان في ثلاث آيات ، في ثلاثة مواضع ، وبصيغة واحدة (إنه طغى) :

- اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى [١] .
- اذْهَبَا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى [٢] .
- اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى [٣] .

الأمر في (اذهب) موجه إلى موسى - عليه السلام - وفي (اذهبا) موجه إلى موسى وأخيه هارون، والحكمة في إرسال الرسولين إلى فرعون - كما نصت الآيات - والسبب هو طغيان فرعون .

فما الفرق بين اذهب وبين ائت التي وردت في سورة الشعراء ؟ في موضعي :

- {وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ}[٤] .
- {فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[٥] .

في رأيي ، أن الذهاب يجيء قبل الإتيان ، إنني يمكن أن أذهب إلى فلان أو ذيّاك المكان ، لكنني لا ألتقي من ذهبت إليه ، أو ما ذهبت من أجله ، ومن ثم فإن موضعي الشعراء السابقين يشيران إلى ضرورة مواجهة فرعون ، ليس الذهاب فقط

---

(١) ٢٤ طه .
(٢) ١٧ النازعات .
(٣) ١٧ النازعات .
(٤) الشعراء ١٠ ، ١١ .
(٥) ١٦ الشعراء .

إليه ، حيث إني لا أسَلّم أن ثم ترادفا يمكن أن يقع في القرآن العظيم ، فلابد من اختلاف في المعنى بين (ذهب) وبين أتي - والله أعلى وأعلم - لكن ترى ما معنى طغى ؟ في وسيط [1] مجمع الخالدين بقاهرة المعز ، ما يلي :

طغا طغْيا وطغيانا ، جاوز الحد المقبول ، وطغى الماء ، فاض وتجاوز الحد في الزيادة ، في القرآن : { إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ [2] } وطغى البحر هاجت أمواجه ، وطغى فلان غلا في العصيان ... تجبر وأسرف في الظلم (فَأَمَّا مَن طَغَى ، وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى [3]) وطغى به الدم : هاج وثار .

أطغاه المال والسلطان جعله طاغيا ، الطاغوت : الطاغي المعتدي ، أو كثير الطغيان ، وكل رأس في الضلال يصرف عن طريق الخير ... وكل ما عبد من دون الله { فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا}[4] يستوي فيه المذكر والمؤنث ، الجمع طواغيت وطواغ .

الطاغية : العظيم الظلم الكثير الطغيان ، التاء هنا للمبالغة والجمع طواغ ، وليس طغاة ، كما يشيع الآن . والطغوى الطغيان {كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا}[5] أي بسبب طغيانها.. الطغيان : تجاوز الحد في الظلم. انتهى ما اقتبسناه، وإن تصرفنا فيه قليلا.

فمن اتصف بصفة مما سبق وما حكاه الوسيط فجاوز في ظلمه الحد فقد اتصف بواحدة مما اتصف به الفرعون ، مهما صغر حجمه واستَفَلَّ دركات[6] دركات

---

(١) ٥٧٩/٣ .
(٢) ١١ الحاقة .
(٣) ٣٧ النازعات .
(٤) ٢٥٦ البقرة .
(٥) ١١ الشمس .
(٦) الدركات مفرد دركة للهبوط ، والدرجة والدرجات للعلو والارتفاع .

إذ إن صفة الطغيان لا تكون فقط من الأعلى ضد الأدنى، أو من الراعي ضد الرعية ، بل أحيانا وكثيرا من الرعية ضد الراعي ، ومن المرءوس ضد رئيس العمل ، ومن البائع ضد من يأتيه يبتاع منه ويدفع له ، أو من السائق ضد راكبي سيارته الذين يؤجرونها منه ، ويركبون بالأجرة التي تدفع له ، ويرتزق منها ، وقد عبر العرب عن هذا بمثلهم : (إن البغاث بأرضنا يستنثر[1]) البغاث طائر صغير ضعيف ، والجمع (بغثان) ويستنر أي يقوى حتى يصبح كالنسر في قوته وجبروته وطغيانه . ولهذا تفصيل يأتي في مكانه .

شيء آخر لاحظناه قبلا ، وهو أن موسى وأخاه هارون ـ عليهما الصلاة والسلام ـ أمرا ، أو أمر موسى وحده بالذهاب إلى فرعون، في حين جاءت آية واحدة هنا آمرة موسى : (أن ائت القوم الظالمين ، قوم فرعون ، ألا يتقون) آية واحدة فقط وجهت نبي الله موسى بإتيان قوم فرعون ، في حين جاء الأمر بالذهاب ـ أو الإتيان ـ إلى فرعون فقط خمس مرات كوامل ، وإلى فرعون وملئه ، من حوله والحاشية أربع مرات ، فهذي تسع مرات ، في حين نجد الرسل تبعث إلى الأقوام والأمم ، لا إلى العظماء أو الملوك ، كما في :

ـ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ[2] .

ـ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ[3] .

ـ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ[4] .

لقد كان فرعون رأس الظلم والطغيان ، فضلا عن دور ولاة الأمر ورعاة

---

(١) الميداني : مجمع الأمثال ١٢/١ .
(٢) ٤٧ الروم .
(٣) ٤٢ الأنعام .
(٤) ٥٩ الأعراف .

الناس في الهدي والضلال ، خاصة في بلد كبلدنا ، فإن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

وفي الحديث الشريف : (صنفان من أمتي إذا صلحوا صلح الناس ، وإذا فسدوا فسد الناس[1] ، الأمراء والفقهاء) وقد ذكر الأمراء قبل الفقهاء ، تماما كما قيل قبلا : إن الله ليزع[2] بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

خامسا ـ الفسق : وصف فرعون وملؤه بهذي الصفة ، جاء الأمر إلى موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ من ربه : (اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ، فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ ؟) إلى من يا رب الأرباب ؟ (إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ) لماذا يا رب ؟ (إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ) .

والمراد بالجناح اليد ، لأن يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر ، وإذا أدخل موسى يده اليمنى تحت عضد يده اليسرى فقد ضم جناحيه ، والرهب أي من انقلاب العصا إلى حية ، وهو شدة الخوف .

الفسق : العصيان والخروج عن حدود الشرع ، وفسق عن أمر ربه ، عصاه وخرج عن طاعته ، والفاسق العاصي الخارج عن حدود الله ، الجمع فاسقون[3] .

سادسا ـ العلو والإسراف : وهنا وصف الفرعون فقط بالعلو والإسراف ، هذا العلو وذياك الإسراف دفعاه إلى فتنة من آمن بموسى ، قال تعالى : (فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي

---

(١) الغزالي : إحياء علوم الدين ١/١٦ .
(٢) في الوسيط : وزع الإنسان وغيره يزعه وزعا : كفه ومنعه وزجره ونهاه .
(٣) معجم ألفاظ القرآن ٢/٨٥٤ .

الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ) [1] .

بعد كل هذي الجهود التي بذلها نبي الله موسى وأخوه هارون ـ عليهما السلام ـ لم يؤمن إلا ذرية، جماعة قليلة من الناس ، وبرغم هذا لم يسلموا من خوف من فرعون ومن أسرهم وأشرافهم ورؤسائهم ، إن فرعون غير تاركهم ، بل سوف يعمل على صرفهم عن الإيمان بموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ والسبب في هذا كله ليس عدوانا منهم على فرعون أو غيره ، بل لأن الفرعون اتسم بصفتين ، العلو في الأرض ، أي الاستكبار والبغي والطغيان في أرض مصر ونواحيها [2] .

والصفة الثانية الإسراف ، التجاوز عن الحد في كل شيء ، ويلاحظ أن القرآن وكّد الصفتين كليهما بموكدين اثنين ، ليس واحد ، هما (إن + اللام).

لاحظ :

ـ وإن فرعون لعال في الأرض .

ـ وإنه لمن المسرفين .

ولقد جاءت صفتا العلو والإسراف في آية أخرى ، وإن جاءتا من نصيب فرعون فقط ، ففي سورة الدخان [3] : (وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِّنَ الْمُسْرِفِينَ) وإن وكدت الصفتان بموكد واحد ، هو (إن) المتصلة بهاء الغائب ، ليس بموكدين اثنين ، كما جاء في سورة يونس ، التي سلفت الإشارة إليها ، حيث اتصف فرعون بالعلو والإسراف أيضا .

سابعا ـ الاستكبار : لم تأت هذي الصفة وحدها قط في مواضعها في القرآن الكريم

---

(١) ٨٣ يونس .
(٢) الطبرسي ـ مجمع البيان ٥/١٦٢ .
(٣) ٣٠ ، ٣١ .

بل جاءت مزينة أو مذيلة غير عاطلة عن صفة أخرى :

١ـ ففي العنكبوت [1] : (وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ) استكبروا في الأرض ، امتنعوا عن قبول الحق معاندة وتكبراً [2] ، من هؤلاء يا رب ؟ هم قارون وفرعون وهامان ، الأول صاحب الأموال الطائلة ، حتى ما تستطيع العصبة أولو القوة من الرجال الأشداء ما يستطيعون حمل الخزائن ، كلا كلا ، وإنما هم لا يطيقون حمل هاتيك المفاتيح لتيك الخزائن .

الثاني هو من هو ، إنه فرعون ، أما ثالثهم فهو هامان وزير فرعون مستشاره المخطط له ، السياسي المحنك الداهية مترنيخ [3] عصره ومكيافلي [4] زمانه.

ومن الطريف اللطيف أن الثلاثة جمعوا على صعيد واحد ، تحالف ثلاثي بالغ الخطورة والسطوة على البلاد والعباد ومخاليق الله المساكين ، ما تكأكئوا على بلد إلا جعلوه خرابا يبابا ، لا يبقون له شيئا من الأخضر أو اليابس الجاف الناشف أو حتى النافق .

هذا الثالوث المرعب الراعب المتربص بالحياة والناس ، حتى لو دخل الناس جحر ضب أو نمل ما تركهم هؤلاء المتربصون ، إنه تحالف رأس المال الظالم المتكدس المتراكم مع رأس الحكم الظالم الغاشم الشؤم الغشمشم ، بثالثهما

---

(١) ٣٩ .

(٢) المعجم الوسيط ٨٠٤/٢ .

(٣) مترنيخ : (١٧٧٣ـ ١٨٥٩) سياسي نمساوي (١٨٠٩ـ ١٨٤٨) قاوم الحركات التحريرية .

(٤) مكيافلي : (١٤٦٩ ـ ١٥٢٧) فيلسوف إيطالي قال بأن الوسائل كلها مبررة في سبيل تحقيق السلطان السياسي.

مستوزرون مخططون مورطون مهلكون للبلاد والعباد ، للحجر والشجر والمدر ، يبيعون فكرهم وعقلهم وعصارة أذهانهم لمن يدفع لهم المال أو الجاه والحظوة ، وهذا ما نراه في كل رجا من أرجاء العالم ، وفي أي بلد ، ثالوث يسعى إلى تكديس الثروات الضخام على حساب الفقراء ، لا يمتصون دماءهم فقط ، بل يسعون بكل ما يمتلكون من مال وجاه وتحكم وتسلط أن يسرعوا بهؤلاء الفقراء نحو حتوفهم وقبورهم ، وبمجرد أن تبدأ أية إشارة لموت هؤلاء الفقراء أسرع هؤلاء الأغنياء إلى الجثة لأخذ ما استطاعوا من قطع غيار بشرية لمن يستطيع يدفع .

ولكل هذا جمع الثلاثي على صعيد واحد (وقارون وفرعون وهامان ...) نصبت الكلمات الثلاث على تقدير فعل محذوف ، هو : (وأهلكنا) .

ومن الملاحظ أن الكتاب المكنون بدأ برأس المال ثم ثنى بالملك ، وجاء صاحب الوزارة المستشار السياسي المحنك ، على ترتيب أهمية الأدوار الثلاثة ، رأس المال على القائمة ، لأنه الأخطر الذي يجر ثاني الثالوث ، وهما يجران الثالث ، رأس المال المكدس ، الذي لا نهاية له هو أس المصائب والبلايا ، وثالثة الأثافي التي تقصم الظهور في أرض الله .

هذا الثالوث استكبر في الأرض ، أو في أرض مصر - كما سبق - وما كانوا سابقين لله في مكرهم وتدبيرهم ، بل أهلكهم ربنا جميعا ، فما بقي منهم أحد ، كما ذكرت الآية : (فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا) [1] وهم فرعون وهامان ، ومن معهم من الجنود المجندة الذين كانوا يطاردون موسى - عليه السلام - ومن

(١) ٤٠ العنكبوت.

معه ، لقد غرق هؤلاء جميعا في صبيحة واحدة ، لم ينج منهم مخبر ، أي لم ينج منهم أحد يخبر عما حدث لهم .

أما الذي خسف به فهو قارون الذي طغا وبغى وعتا ، وعصا الرب الأعلى ، ومشى في الأرض مرحا ، وفرح ومرح ، وتاه بنفسه ، واعتقد أنه أفضل من غيره ، واختال في مشيته ، فخسف به وبداره الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ، أي يغوص فيها ، وتنزل به [1] وتهتز إلى يوم الدين .

لقد أطغاه المال الطاغي والغنى الفاحش ، الذي فاق كل الحدود ، وفاض على جميع الجوانب ، وهو ما يشير إلى تأثير المال في أصحابه إلى يوم الدين .

ب ـ وهذي آية أخرى تقرن العلو بالاستكبار، وإن أعطت الصفتين إلى فرعون وملئه (من حوله) قال المولى : (ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين) إلى من يا رب أرسلتهم ؟ (إلى فرعون وملئه) فما صنع هؤلاء وفرعونهم ؟ (فاستكبروا) فقط ؟ كلا ، (وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ [2]) لقد أضافوا إلى الاستكبار العلو والتعالي على الآخرين .

جـ ـ أما آية يونس فتضيف إلى الاستكبار صفة أخرى هي الإجرام : (ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُوا قَوْماً مُّجْرِمِينَ [3]).

في هذي الآية والتي سبقتها يشار إلى أن الاستكبار ما طرأ عليهم حين جاءهم موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لكن الصفة في الآيتين كانتا فيهما حتى قبل بعث رسولهم ، لاحظ أيها القارئ الكريم :

---

(١) انظر الوسيط ٤٢٨/١ ، الكبير ٤٧٨/٤ .
(٢) ٤٦ المؤمنون .
(٣) ٧٥ يونس .

ـ فاستكبروا وكانوا قوما عالين .

ـ فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين .

د ـ أما قمة الاستكبار والتطاول لدى فرعون فكانت فيما حكته آيتا القصص[1]: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ) .

إنـه لا يعتبر نفسه إلها فقط ، بل يرى أنه لا إله غيره ، إنه يعلن أمام ملئه : (يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي) ومن ثم أمر وزيره هامان ومدبر رعيته ومستشار دولته ومطيعه الذلول أن يوقد له على الطين ، الطوب المصنوع من الطين أي يصنع لـه آجرا (طوبا أحمر) لبناء صرح بالغ البنيان ، قصر منيف ، رفيع عالٍ ، ناطحة سحاب بمستوى عصره وأوانه ، أوهي من هذا أعظم وأشد رفعة .

لقد بنـى الفرعون صرحا لـم ير في دنياه بناء منه أعلى ، فما أراد من هذا ؟ في أنـه رسول من عند الله ؟ كلا ، إنـه يكذب موسى بأن هناك إلها غيره ، هو رب العالمين ، إنه لا يعترف بوجود الصانع ـ جلا وعلا ـ في الأصل وفي الأساس ، لقد كان يتساءل متعجبا[2] : (وما رب العالمين ؟) وهكذا .

وفي سورة غافر نفس القصة ، وذياك التطاول : (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلا فِي تَبَابٍ)

جـاء في الميزان والصرح البناء الظاهر ، الذي لا يخفى على عين الناظر ،

---

(١) ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) تفسير ابن كثير : انظر ٣/٣٩٠ .

وإن بعد ، والأسباب جمع سبب ، وهو ما تتوصل به إلى ما يبتعد عنك ، وقوله : (لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ) تعليل لأمره بناء الصرح ، المعنى آمرك ببنائه لأني أرجو أن أبلغ بالصعود عليه الأسباب ، التي فسرها بقوله : أسباب السماوات ، وفرع عليه قوله : فأطلع إلى إله موسى ، إن فرعون يرى جازما مستيقنا أن الإله الذي يدعيه موسى ويدعو إليه ، ليس في الأرض غيره - بكل توكيد لديه ، ولعل إله موسى في السماء ، فابن يا هامان ناطحة سحاب (صرحا) لعلي أبلغ بالصعود عليه الأسباب السماوية الكاشفة عن خفايا وخبايا السماء فأطلع إلى إله موسى ، وإن كنت أظنه كاذبا في ادعاء إله غيري حتى في السماء .

وقيل : إن فرعون أراد أن يبني له هامان مرصدا يرصد فيه أوضاع السماء لعله يرصد فيها أو يعثر بها على ما يشير إلى إله موسى ، بعد اليأس من الظفر عليه بالوسائل الأرضية .

لقد زين الشيطان لفرعون قبيح عمله فرآه حسنا ، وصده عن السبيل ، سبيل الرشاد ، لقد جادل موسى بالباطل ، بأعمال قبيحة مستهجنة ، ومكائد سفهية عبثية لإدحاض الحق (وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إلا فِي تَبَابٍ) هلاك وانقطاع وانتهاء ... انتهى ما قبسناه من الطباطبائي[1] .

ثامنا - البغي والعدوان : وصف بما سبق فرعون فقط ؟ كلا ، بل فرعون وجنوده ، كيف ؟ في التنزيل : (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ[2]).

---

(١) الميزان ١٧/ ٣٣١- ٣٣٢ .
(٢) ٩٠ يونس .

إن هذي الآية الكريمة تكشف عن أخلاق الظالمين الذين لا يتركون خلق الله المعارضين لهم ، حتى لو تركوا لهم الأرض والوطن ، وفروا بجلودهم ونفوسهم ، وبرغم هذا لا يتركونهم ، بل يطاردونهم في كل فجاج الأرض ، حتى لو دخلوا جحر نمل صغير لدخلوا خلفهم ، وهذا بغي شديد وعدوان ظاهر .

وإذا رجعنا إلى أخلاق المسلمين في الحرب والصراع وجدنا عكس هذا تماما بتمام ، ففي فقه السنة : وإذا كان الإسلام أباح الحرب كضرورة من الضرورات ، فإنه جعلها مقدرة بقدرها ، فلا يقتل إلا من يقاتل في المعركة ، وأما من تجنب الحرب ، فلا يحل قتله أو التعرض له بحال ، وحرم الإسلام قتل النساء والأطفال والمرضى والشيوخ والعجائز والرهبان والمنقطعين للعبادة والأجراء ، ممن لا يسهمون في المجهود الحربي ، ويشتركون فعليا في القتال ، كما حرم الإسلام المثلة وإفساد المياه أو تلويثها ، وهدم البيوت .

وكذلك حرم ديننا الإجهاز على الجريح ، وتتبع الفار ، فالحرب كالعملية الجراحية ، لا يجب أن تتجاوز موضع المرض إلى مكان غيره ، مهما جاوره ومنه اقترب ... [1] / .هـ.

إن الإسلام لم يحرم تتبع الفار وما سبق من الموبقات إلا لأن في هذا كله مصلحة واضحة بينة ، لعدونا المحارب لنا ؟ كلا وألف كلا ، إن في تحريم كل ما سطرنا قبلا مصلحة ، وإصلاح لنا نحن قبل عدونا ، فهذا الذي فر من قتالنا وكفانا الله قتاله وقتله قد أراحنا الله منه ، دون جهد أو مشقة ولذا فإن تتبعه يعتبر هدرا لمجهودنا الحربي الذي يجب أن نوفره لمن يواجهنا بسيفه وسلاحه .

(١) فقه السنة ١٣٢/١١ .

وكذلك قتل الناس الذين لا يشتركون في الحرب مثل النساء والأطفال ... إلخ والتعرض لممتلكات الناس وزروعهم ومياههم ... كل هذا لا يفيد في دعم مجهودنا الحربي ، الذي يجب أن ينصب كله على المواجه لنا في سوح النزال والقتال والضراب ، وإلا وصفنا ـ كما وصف فرعون وجنوده ـ بالبغي فما المقصود بهاتين الصفتين ؟ البغي : الظلم والفساد ومجاوزة الحد [1] ، أما العدو فهو المجاوزة والظلم [2] ، وتجاوز الحد في الفعل والقول .

ولكن هذا النوع من الناس الذي يتصف بالبغي والعدو (إذا أدركه الغرق ، قال : آمنت أن لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ، وأنا من المسلمين) ساعة الفرق والهلاك فقط يؤمن ويعترف بالحق والحقيق ، وبالصح والصحيح ، أما قبلها فلا ، بل وألف لا .

تاسعا ـ يسومون الناس سوء العذاب: إنهم لا يعذبون الناس فقط بل يسومونهم سوء هذا العذاب ، وأسوأه ، أي يجشمهم ويكلفهم إياه مع المشقة الشديدة ، كيف ؟ لقد جاء في التنزيل :

١ـ (وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ[3]) .

٢ـ (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ[4]) .

---

(١) معجم ألفاظ القرآن الكريم ١/١٥٤ .
(٢) السابق ، انظر ٢/٧٤٩ .
(٣) ٤٩ البقرة .
(٤) ٦ إبراهيم .

٣- (وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ[1]) .

وقد فسر القرآن الكريم سوء العذاب الذي مارسه آل فرعون ضد الناس بأنه تمثل في أمرين :

- قتل الأطفال .

- استحياء النساء وإبقاؤهم .

إن فرعون وآله لم يقتلوا الأطفال فقط ، بل قتّلوهم - بتضعيف التاء - فقط ؟ لا ، بل ذبحوهم ، فقط ؟ لقد ذبّحوهم عن آخرهم ، حتى لا يخرج منهم موسى - عليه السلام - كيف ؟

جاء في مجمع البيان : فصل الله النعم التي أجملها فيما قبل ، فقال : (واذكروا إذ نجيناكم) خلصناكم من قوم (فرعون) وأهل ملته (يسومونكم) يلزمونكم (سوء العذاب) يذيقونكم ويكلفونكم (يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم) .

هذا فقط ؟ كلا ، بل أيضا كلفوهم بالأعمال الشاقة ، جعلوهم أصنافا وأنواعا وأضرابا ، فصنف للخدمة ، صنف للحرث والزراعة والأعمال الشاقة ، ومن لا يصلح للعمل ، ضربت عليه الجزية .

أما استبقاء النساء فكان الهدف منه استعبادهن واسترقاقهن ، وهذا أشد من الذبح .

ويحكى أن فرعون رأي في منامه نارا أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت

(١) ١٤١ الأعراف .

على بيوت مصر فأحرقتها وأحرقت المصريين ، وتركت بني إسرائيل ، ولما هاله هذا سأل تفسير رؤياه ، فقيل له : يولد في بني إسرائيل غلام يكون على يديه هلاكه وزوال ملكه وتبديل دينه ، فأمر فرعون بقتل كل غلام يولد في بني إسرائيل .

جمع القوابل من أهل مملكته فقال : لا يسقط على أيديكن غلام من بني إسرائيل إلا قتل ، ولا جارية إلا تركت ، ووكل بهن من يراقبهن ، ينفذن ما أمر ، ويفعلن ما يريد ، ولكن الموت أسرع في كبار السن من بني إسرائيل ، فدخل رءوس المصريين على فرعون ، وقالوا له : إن الموت قد وقع في بني إسرائيل ، فأنت تذبح صغارهم ، ويموت كبارهم ، فيوشك أن يقع العمل علينا ، فأمر فرعون أن يذبحوا سنة ويتركوا سنة ، فولد هارون في السنة التي لا يذبحون فيها فترك ، وولد موسى في السنة التي يذبحون فيها [١] ، فنجاه الله ، كما فصلت آيات [٢] القصص .

هكذا الظالمون في كل عصر وأوان يذبحون الأبناء ، ويتركون النساء والبنات ، لكنهم في الآونة الأخيرة اكتشفوا أنهم تفوقوا على الفرعون القديم بإبادة الذكران وترك الإناث ، فمالوا إلى إبادة الجموع ذكرانا وإناثا ، لا يتركون للفقراء بشرا ولا حجرا ولا شجرا ، يحاولون القضاء المبرم على كل ديّار يعيش على الكرة الأرضية .

وفي بعض الأحيان نرى هؤلاء الظالمين يميلون على الذكران يحاولون تحطيمهم بحرمانهم من فرص العمل والتوظيف والتدريب والتعليم ، قتل هو أو ذبح بغير سكين في حين تفتح أما الإناث كل الفرص والأبواب [٣] ، ولعل هذا أكبر من

---

(١) الطبرسي : مجمع البيان ١/١٣٥،١٣٤ .
(٢) ٦ - ١٣ .
(٣) حتى وصلت العمالة المؤنثة في العالم الآن إلى مليار ومائتي مليون = ٦/١ سكان العالم ، الذي يتكون الآن من ستة مليارات ونصف المليار نسمة .

الذبح والقتل ، عندما تجد الأسرة نفسها أمام فتية وشباب ، لا أمل لهم في فرصة عمل مهما ضؤل الأجر أو كان تافها ، ولعلنا نفصل الكلام في قضية توظيف الشباب في دراسة لاحقة ، إن شاء الله تعالى .

عاشرا - وجعل أهلها شيعا : جاءت هذه الصفة التي نسبت لفرعون فقط ، دون أهله لا الملأ ولا الجنود ، مع صفات أخرى مكملة لها ، جاء كل هذا في آية [1] القصص : (إنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

عددت الآية جزءا من جرائم الفرعون :

- العلو في الأرض .
- جعل أهلها شيعا .
- ذبح الأبناء واستحياء النساء .
- الإفساد .

أول ملاحظة على ما سبق نلتقطها من آخر صفة ذكرت وسطرت هنا ، وهي الإفساد لنتذكر أن القرآن الكريم لم يشتق اسم الفاعل من (فسد) بدون ألف التعدية أول الفعل ، فلم يأت اسم الفاعل (فاسد) على الإطلاق في التنزيل ، لا مفردا ولا غير مفرد ، ما يدل على أن فساد الظالمين والفراعين لا يتم إلا بفعل فاعل وقصد قصد وتعمد المتعمدين المفسدين ، أما بدء الآية فقد ذكر أن (فرعون علا في الأرض ...) تكبر وتجبر ، ليس هذا فقط ، بل (وجعل أهلها شيعا) جعل أهل مصر شيعا ، كل طائفة يسخرها في شأن من شئونه [2] ، ولا يكتفي بما سبق ، فلكي يكتمل تمزيق

(١) ٤ .
(٢) الظلال : ٦/٣٢٣ .

الشعب والناس ، فإنه استضعف طائفة منهم ، فجعل (يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم) وهذا ديدن الظالمين في كل عصر وأوان .

و(شيعا) جمع شيعة وهي الفرقة ، فالشيع الفرق ، وكل فرقة شيعة ، وسموا بهذا لأن بعضهم يتابع بعضا ، وكأن المراد بجعل أهل مصر فرقا وشيعا رفع سلاح الاختلاف فيما بينهم حتى لا تتفق كلمتهم فيثوروا في وجهه ، ويقلبوا عليه الأمور على ما هو من دأب الظالمين في بسط القدرة وتقوية السلطة في تذبيح الذكران ولو بغير دم وسكين ، واستحياء النساء وإعلاء رايتهن .

إن فرعون علا في الأرض ، وتفوق فيها ببسط السلطة على الناس ، وإنفاذ القدرة فيهم وجعل أهلها شيعا وفرقا مختلفة ، لا تجتمع كلمتهم على شيء ، وبذا أضعف قوتهم [1] ، على المقاومة .

لقد خلق الله الناس جميعا من أب واحد وأم واحدة لا فرق بينهم إلا بالتقوى و العمل الصالح ، كلّ له حق التمتع بطيبات الحياة ونعائمها ، فالبشر جميعا إما أخ لنا - نحن المسلمين - في الدين ، أو أخ في الخلق والإنسانية .

وعندما علت راية الظالمين فترة الاستعمار الأول ، أو القديم رأينا كيف قسمت الشعوب والأمم ، كيف مزق البشر من العرب والعجم ، وكيف مزقت الأرض وتوزعت وتفرقت حتى تستمر المشكلات بين الناس ، لا تندمل جروحها على مر التاريخ وكر القرون والدهور ، وهذي أمثلة ، هي قل من كثر ، ونزر من بحر ، وغيض من فيض ، ليس إلا :

١- الشعب الكردي توزع بين ثلاثة أقطار متجاورة متلاصقة (إيران - العراق - تركيا)

(١) الميزان ١٦/٧٠٨ .

إضافة إلى سوريا ولبنان ، وأقطار أخرى بعيدة نائية .

٢ـ الشعب العربي توزع إلى أقطار متجاورة ، بلغت دولها الآن ٢٢ دولة ، هن أعضاء جامعة الدول العربية ، ليس هذا فقط ، بل أعطيت فلسطين لليهود لا حبا فيهم ، وإنما كي تبقى نيران الحرب مستعرة بين الشعبين على مر التاريخ ، ويوم يقوم السلام بين العرب وبين إسرائيل ، وتتخلى هذه الأخيرة عن المهمة التي رسمها لها الغرب سوف يتخلى عنها الغرب إلى غير رجعة ، هذا وطن واحد وعالم واحد ، وطن العرب وعالم العرب، لكن الغرب جعله وطنين ، أو أعطى جزءا منه إلى غيره ، غرباء عنه ، ثم أعطى سكان هذا الجزء المسلوب كل الدعم والتأييد والحماس ، حتى وصل كل هذا إلى نوع من الهوس لا مثيل له .

٣ـ شعب الملايو الواحد ، الذي عاش آلاف السنين في شبه جزيرة الملايو ، أعطى الاستعمار شماله إلى مملكة تايلاند ، وأعطى سنغافورة للصينيين ١٩٦٥ ، وأعطى اتحاد ماليزيا ولايتي صباح وسرواك فيما عرف بماليزيا الشرقية ، في مقابل ماليزيا الغربية التي تضم ما بقي من شبه الجزيرة ، ويفصل بين الماليزيتين ١٧٠٠كم في بحر الصين الجنوبي ، صباح وسرواك تقعان على جزيرة بورنيو التي حملت بثلاثة أعلام دول ، إذ تقع فيها سلطنة بروناي حيث المنطقة الأغنى ، ثم ماليزيا الشرقية التي أشير إليها وباقي الجزيرة أعطي لجمهورية أندونيسيا .

ولكن الاستعمار لم يكتف بكل هذا ، بل غير التركيبة السكانية في ماليزيا ، استقدم الهنود والصينيين إلى شبه الجزيرة ، ثم أعطاهم الجنسية الماليزية ، فأصبح أهل البلد لا يمثلون غير ٤٠% من سكان بلدهم ، أما الصينيون فقد ناظروا السكان حتى وصلوا إلى ٤٠% ، والهنود وجنسيات أخرى مثلوا ٢٠% من سكان مملكة ماليزيا .

وهل وقف الأمر عند هذا الحد ؟ كلا وألف كلا ، لقد ساعدوا الصينيون اقتصاديا وماليا حتى زاد الأمر عن حده ، فقيل كان إسهام أصحاب الأرض في اقتصاد بلدهم لا يتعدى ٥% من اقتصاد بلادهم ، وفي عقر دارهم ، ولكن انتفاضة ١٩٦٩ دفعت بنسبة إسهام الملايو في اقتصاد بلادهم إلى ٥٠% وهو ما يدعو إلى كثير من التفاؤل .

٤ـ وإذا انتقلنا إلى القارة الإفريقية وجدنا العجب العجاب ونكتفي بمثال واحد ، إنه جمهورية بوروندى ، قطر صغير مساحته ٢٨ ألف كم ، يقترب من مساحة فلسطين ، سكانها ٦ ملايين وربع المليون ، عاصمتها بوجمبورة ، قطر حبيس من وسط القارة تحده من الشرق تنزانيا ، ومن الغرب زائير ، ومن الجنوب زامبيا ، في هذا البلد المسكين قبيلتان رئيستان ، هما الهوتو والتوتسي ، الأولى تمثل ٦٥% من السكان والأخرى ٢٥% ، وبعضهم يراها ١٥% والهوتو ٨٥% .

الأغلبية من هذي الأخيرة ، والأقلية من التوتسي ، فماذا فعل الاستعمار ؟ رفع الأقلية على رقاب الأكثرية حتى أجلسها على سلطة الحكم والمال ، على حساب الأكثرية من القبائل الأخرى ، وعلى رأسها الهوتو. ولذا سرعان ما تململت الأكثرية واندفعت البلاد إلى حرب أهلية ضروس ، كانت أشبه بمذبحة أو مذابح رهيبة لا حد لها ، ولا توقف ، من الهوتو ذات الأغلبية ضد التوتسي التي حكمت البلاد ، أو قل حَكَمت في البلاد والعباد .

في سنة ١٩٩٩ قابلت في أكرانيا فتاة فرنسية من أصل توتسي ، اسمها الكسانا ، ذكرت أن أمها فرنسية وأبوها توتسي ، قالت إن قبيلة التوتسي هم فقط ١٥% من شعب بوروندي ، كانوا ملوك البلد ، وكان الهوتو عبيدا يعملون في أراضيهم ، وهم ٨٠% من السكان ، التوتسي رعاة بقر ، والهوتو فلاحون ، فقتلوا

من قومها مليونين ـ كما ذكرت ـ كما ارتكبوا فظائع ضد التوتسي ، قطعوا أثداء النساء حتى لا ترضع الأطفال ، قتلوا الرجال ، قطعوا أرجل الفتيان ليكونوا مقعدين طوال حياتهم ، تقو ل ألكسانا : وبرغم هذا لم يتحرك المجتمع الدولي ، كما يفعل الآن ـ ١٩٩٩ ـ في ضرب الصرب في كوسوفو[١] .

٥ـ وعندما نكبت الأمريكيتان بالاستعمار الغربي منذ نهاية القرن الخامس عشر ، آل أمرهما إلى قسمين رئيسين ، شمال غنى (كندا والولايات المتحدة) وجنوب فقير من حدود المكسيك الشمالية حتى أقصى نقطة من قارة أمريكا الجنوبية .

بل حتى في البلد الواحد انقسم أهله شيعا وفرقا ، أغنياء وفقراء ، سادة وعبيد ، متخمون ومعدمون ، معاناة لم تعرف في أي مكان آخر من عالمنا ، وإلى الآن [٢] .

أما الغرب الحديث ، والاستعمار الحديث الذي يرفع لواء العولمة وحرية التجارة والديمقراطية والتنمية ومحاربة الإرهاب ، فإنه سار في نفس الطريق حتى وصل درجة الابتكار والإبداع في جعل الناس في الأرض شيعا وفرقا لبذر بذور الصراع والحروب التي لا يخمد أوارها مدى الدهر :

١ـ في فلسطين : اكتشف الناس فجأة أن أهل فلسطين انقسموا بين فتح وحماس ، فقط ؟ بل صراع واجب وضروري وحتمي بين (الحمساوية) وبين (الفتحاوية) حتى حكومة الوحدة الوطنية ، قسموها بين وزراء سلطة ووزراء حماس ، الآخرون مؤخرون مقاطعون ، والأولون مبجلون محترمون حائزون على الرضا والرعاية

(١) أبو الخير العربية في بلدان غير عربية ، ص ١٨٦ .
(٢) فصلنا الحديث عن هذي المعاناة في كتابنا (أمريكا اللاتينية والبرازيل ...) فلعل القارئ يرجع إليه إذا أراد .

الحقيقة أن فراعين العصر ، لا يميلون إلى هؤلاء ، ولا يعشقون هؤلاء ، إنما هم سائرون على مبدأ : (إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا) .

٢ـ وفي العراق الدامي الجريح ، الذي كان لا يعرف إلا واحدا موحدا ، شعبه كان لا يرى عليه إلا سيماء الوحدة والتوحد ، شعب العراق يبدو الآن ومنذ احتلاله ٢٠٠٣ وكأنه مزق وشيع وطوائف ، بينها الحروب مستعرة لا يخمد لها أوار ، لقد اكتشف الناس أن هذا الشعب منقسم متفتت إلى شيعة وسنة وأكراد وتركمان ... إلخ ، بل هو منقسم إلى جنوب وشمال وشرق وغرب ووسط ، والبقية تأتي ، وبعد هذا يدعي المحتل أن القتل في العراق المصاب مستورد من جيرانه .

٣ـ وفي لبنان : مسلمون ومسيحيون ، والمسلمون منهم السنة ومنهم المتشيع ، حتى الشيعة منقسمون ، قسم مع أمل ، وآخر مع حزب الله ، المسيحيون أيضا منهم موارنة ، ومنهم كذا ، وفي البلد أيضا دروز ، هم ليسوا سواء ، منهم اشتراكيون تقدميون ، ومنهم ناءون عن الحزب الاشتراكي التقدمي ، تركيبة يراد لها أن لا يهدأ الصراع والحرب بينها ، وقد دفع البلد الثمن غاليا في حروب أهلية ، استمرت آخرها حتى بدء تسعينات القرن العشرين .

ولم ينس الغرب شيئا مهما أيضا ، لم ينسوا الفلسطينيين الذين شردوا من فلسطينهم ، يسعى الغرب باستماتة لتوطينهم في لبنان العرب والعروبة ، ليس حبا وهياما بهم ، ولا شفقة عليهم ، وليس خدمة لإسرائيل ، وإنما ليصنع بذرة من بذور الصراع والشقاق في لبنان ، ولا ننسى أن شرارة الحرب الأهلية الأخيرة كانت - ١٩٧٥ ـ بسبب الفلسطينيين ، لا أقول إن اللبنانيين كانوا السبب ، أو الآخرون كانوا هم السبب، وإنما استغلت خلافات عادية بين الفريقين كي تستمر الحرب سنين عددا.

والآن لم يتركوا البلد لحاله يعالج آثار الحرب المدمرة ، بل ما فتئوا يدسون أنوفهم في الصغير والكبير والتافه والحقير من شئونه ، حتى قسموه إلى أغلبية أو موالاة ومعارضة ، مع التأييد الشديد في السر والعلن للموالاة والأغلبية الحاكمة ، على حساب المعارضة ، لا كرها في الأخيرة وحبا في الحكومة ، بل رغبة شديدة في أن لا تنحل أية عقدة من عقد الصراع.

الغرب في لبنان داعم بقوة لرئيس الوزراء ، معارض بقسوة وشراسة ضد رئيس الجمهورية ، ولكن في فلسطين العكس تماما ، هم مع الرئيس بكل قوة ، وضد رئيس الوزراء المنتخب بكل ما أوتوا من بأس ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

٤ـ وفي مصر العروبة والإسلام : حاولوا قسم الشعب الواحد إلى شمال وجنوب ، ثم تذكروا أن فيه مسلمين وأقباطا ، حاولوا دائما شق الصف بينهم ، بحجة أن هؤلاء أو هؤلاء مظلومون مغبونون ، وأن الأكثرية تحتنك حقوق الأقلية ، مع أننا أبناء وطن واحد ، كلنا فيه شركاء وقسماء ، كلنا فيه سواء ، بل سواء بسواء ، الآخرون إخوة لنا في الخلق ، في الإنسانية والبشرية ، فكلنا لآدم ، وآدم من تراب .

ولازلت أذكر العلاقة الطيبة والودودة بين الناس مسلمهم ومسيحهم ، في المسرات والأحزان ، والعلاقات الاجتماعية الواسعة المنفتحة ، وما يصنع الشروخ والفوارق بين الناس إلا خلفاء فرعون ، ومن لف لفه ، واتبع طريقته فَعَلاً (في الأرض ، وجعل أهلها شيعا) .

٥ـ وفي الجزائر : بلد المليون شهيد ، فمن قتلهم ، وبأي ذنب أو جريرة قتلهم وسفك دماءهم ؟ الاستعمار القديم ، أما في الحديث فقد اكتشف الناس فجأة في مَسْفَك دماء المليون شاهد وشهيد ، اكتشفوا أن البلد هو منقسم بين عرب وبربر ، أو عروبة

وأمازيغ ، والآخرون مظلومون ، تحتنكهم الأغلبية العربية ، وهنا لا مجال للحوار والنقاش والتفاوض بين الفريقين ، بل للصراع حتمية وضرورة ، ولا مناص ، ولا فكاك ولا محيص عنهما .

ليس هذا فقط ، بل فجأة اكتشف الشعب الجزائري المسلم أن الإسلاميين فازوا في الانتخابات - بدء تسعينات القرن العشرين - عليه تحول البلد إلى معسكرين متحاربين ، الجماعات الإسلامية من ناحية والحكومة العسكرية من ناحية أخرى ، ومرة أخرى دفعت البلاد الثمن - ولازالت تدفعه - ولما تزل تدفعه ، من دماء أبنائها .

٦- وفي السودان الشقيق اخترعوا له مشكلة الجنوب ، وعندما حاول الناس إطفاء الفتنة ، كانت معضلة أخرى جاهزة ، في غرب البلاد ، النار فيها تستعر ، الصراع فيها يتأجج ، فإن هدأ كانت جبهة أخرى في الشرق قد انفتحت ، وهكذا دواليك ، كلما انطفأت نار أشعلوا أخرى مكانها ، أو قبل انطفائها ، أو حتى قبل الأمل في انطفائها.

٧- فإذا ابتعدنا عن العالم العربي إلى شمال شرق قارة آسيا ، شبه الجزيرة الكورية ، الولايات المتحدة الأمريكية خرجت من الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ ، ولم تكد تمر خمس سنوات فقط حتى وثبت على كوريا التي في مواجهة اليابان ، حيث تقع الأخيرة إلى الشرق من شبه الجزيرة الكورية .

بقيت الحرب (١٩٥٠ - ١٩٥٣) ما يزيد عن الألف يوم وليلة أتت على اليابس قبل الأخضر ، وسفكت فيها الدماء الكورية والأمريكية والصينية ، مئات الألوف من الشباب البرآء الذين لا ناقة لهم ولا جمل ، مدنيون وعسكريون سفكت دماؤهم في هاتيك الحرب الضروس التي طحنتهم طحنا .

وخرج الكوريون بعد هذي الدماء المسفوكة ليجدوا أنفسهم انقسموا إلى دولتين متعادلتين متصارعتين ، مع أنهم شعب واحد ، ودم واحد ، وعرق واحد ، لغة واحدة هي الكورية ، وثقافة واحدة ، وتاريخ مشترك واحد .

ليس هذا فقط ، ولكن إحدى الكوريتين (الجنوبية) حظيت بكل دعم من الغرب وتأييد ، على عكس الأخرى التي يقف لها بالمرصاد والعداء والمحاربة ، إنها ذات الأخلاق الفرعونية (يستضعف طائفة منهم ...) محاولة لرفع جزء من الشعب على حساب جزئه الآخر .

٨- ومن الشمال الشرقي الآسيوي إلى الجنوب حيث فيتنام ، في جنوب شرق آسيا ، على غير مبعدة من الفلبين التي تقع إلى الشرق في فيتنام ، قامت الحروب الضروس بين الغرب وبين هذا الشعب المسكين المسالم ، فرنسا أولا ، وعندما هزمت - ١٩٥٤- جاءت الولايات المتحدة بقضها وقضيضها ، وألقت بكلكلها وأساطيلها على هؤلاء المساكين ، وأريقت الدماء أنهارا أنهار ، وازدادت هوة الانقسام في البلد الواحد الذي تقل مساحته عن ثلث مليون كم أو ثلث مساحة مصرنا انقسم إلى قسمين ، جنوب تابع للغرب ، وشمال لأصحاب البلد .

عاش الشعب في فيتناميتين ، شمالية وعاصمتها (هانوي) وجنوبية ، وعاصمتها (سايجون) وبقى هذا الوضع إلى أن انسحب الجيش الأمريكي ، وبمجرد انسحابه ، وقبل أن يقوم المحتل من مكانه ، بل قبل أن يرتد إليه طرفه ، انهارت سايجون - ١٩٧٥ - وذابت الفيتنام الجنوبية في شمالها وعادت البلاد مرة أخرى إلى وحدتها وتماسكها ، لينصهر الشعب مرة أخرى في دولة واحدة ، حاضرتها إلى الآن (هانوي) في أقصى شمال البلاد .

ونتساءل في غياب النموذج الغربي المألوف ، شمال غني رأسمالي ، وجنوب فقير ، كما حدث في الأمريكتين ؟ لقد وجدنا كوريا الجنوبية هي الرأسمالية الغنية المتوجهة إلى الغرب ، وكذا في فيتنام الجنوبية إلى أن سقطت بمجرد الانسحاب الأمريكي .

السبب في هذا أن القوات والأساطيل البحرية تتجه نحو الساحل ، أو نحو الجزء الجنوبي من اليابسة ، فيضغط المحتل بكل قواه على هذا الجزء من شبه الجزيرة ، ليدفع أصحاب البلد المساكين نحو عمق بلادهم ، والذي يقع في الشمال ، يتجهون من السواحل الجنوبية إلى داخل البلاد ، ولا مهرب أمامهم إلا التقهقر شمالا كما هو في الخرايط والأطالس .

كما أن هذا العمق إلى الشمال يستند إلى حائط مهم ، جبل أشم صديق كان صديقا للكوريين والفيتناميين، يدعم دفاعهم ضد المحتل الغازي لهم في عقر دارهم ، حائط الصد هذا هو الصين ، التي لم تكتف بدعم جيرانها في الشرق ضد غزو الأمريكان ، بل اشتركت في بعض مراحل الحرب الكورية ، كما لا ننسى أن شبه الجزيرة الكورية تتصل في أطرافها الشمالية الشرقية بالحدود الجنوبية الشرقية للاتحاد السوفيتي السابق ، تيك ـ هذه ـ الحدود التي تخطى الآن روسيا الاتحادية ، لقد كان لهذا الاتحاد السوفييتي دور في دعم الحرب ضد الأمريكان في إطار الحرب الباردة بين القوتين العظيمتين، وبسبب متاخمة كوريا للحدود السوفيتية ، كما سبق.

فيتنام هي الأخرى تتاخم حدودها الشمالية الصين ، في الجزء الجنوبي الشرقي من حدود الأخيرة ، ومن ثم كان الدعم من هذا الجار المناوئ للغزو الأمريكي إضافة إلى دور الاتحاد السوفييتي السابق الداعم للفيتناميتين في إطار الحرب الباردة أيضا.

٨- وفي فنزويلا : وما أدراك ما فنزويلا ، نتحرك من شرق قارة آسيا سراعا إلى حيث هذا البلد المسكين ، في هذي البقعة المظلومة من العالم ، فنزويلا تقع في أقصى الشمال من أمريكا الجنوبية (المساحة = أقل من مليون كم - السكان = ٢٥ مليون نسمة تقريبا - العاصمة كركاس) .

يقع إلى الشمال منها ، من الشرق نحو الغرب (جمهورية الدومينكان - هايتي - كوبا) وإلى الشمال مما سبق جزر البهاما ، ثم ثم ، ثم أما بعد ؟ ثم - يا يا يرحمك الله - فلوريدا الأمريكية ، هي إذن الجارة رقم ٢ ، أو الجار الثاني بعد كوبا للولايات المتحدة ، القوة العظمى الوحيدة في عالم اليوم.

على مسرح السياسة ظهر الرئيس هوجو شافيز ، يعتبر نفسه تلميذا للزعيم الراحل جمال عبد الناصر (ت ١٩٧٠م) حاول تأميم البترول ، بترول بلاده ، محاولة للخروج عن النصوص المقدسة لعصر العولمة وقدس أقداس القوة العظمى ، الجار الثاني في الشمال ، هذا حقها أن تعمل لصالحها ولصالح مواطنيها .

كان لابد من الإطاحة بهذا الشافيز ، رجعية تعيدنا إلى عصر الحرب الباردة ، هي عدوى الجار الفاصل بين الولايات المتحدة وبين كركاس - كاسترو - الإطاحة بمثل هذا الخارج عن النصوص المقدسة أمر اعتيادي معتاد ، له أنصار في الشارع فلنصنع لنا - نحن الآخرين - أنصارا آخرين ، ومن بني جلدته ، مظاهرات ومظاهرات مضادة ، تظاهرة للرئيس ، وتظاهرة أخرى عليه ، إلى هنا والأمر ممتاز وفوق الممتاز .

وقف أحد مساعدي شافيز المقربين ، وفي فضائية الجزيرة يحكي خيوط المأساة التي حصلت ، مجموعة من المسلحين اختبأوا في أحد الفنادق الرئيسة في

الحاضرة كركاس ، وزعوا أنفسهم إلى قسمين ، قسم اتجه إلى أنصار شافيز المتظاهرين (طخ في المليان) رصاص حي يحصد الناس حصدا فقط ؟ كلا فإن القسم الآخر من المسلحين في الفندق اتجه هو الآخر إلى معارضي الرئيس المستأجرين ، أيضا (طخ في المليان) رصاص حي قاتل مباشر للمعارضة أيضا ، برغم أنها مصنوعة .

هكذا بدا مشهد المعركة وكأنه صراع و(طخ) متبادل بين الموالين والمعارضين للرئيس ، وكادت تقع مذبحة ، أو قل مذابح ، تبدأ ولا يدري أحد إلى أين تنتهي ، ولكن الله سلم ، فاكتشف الناس أن النار تطلق من الفندق ، من قبل هؤلاء القتلة المستأجرين على الفريقين .

٩ـ وفي باكستان : يحدث نفس الشيء ، نفس الترتيب والنسق ، كيف بالله عليك ؟ فوجئ الناس قبل نحو شهرين من الآن ـ أي في ٩ مارس ٢٠٠٧ ـ أن الرئيس يقيل رئيس المحكمة العليا في البلاد (افتخار محمد شدري) ماذا فعلت يا شدري ؟ لابد خرج عن النص المقدس ، اقترب من صنم من أصنام العولمة ، هذا الصنم محظور لمسه أو الاقتراب البعيد منه .

ما هو هذا الصنم يا طويل العمر والقامة ؟ إنه الخصخصة ، حيث تباع مؤسسات البلد ومصانعه ومرافقه الحيوية التي شقى كادحا كدحا حتى يلاقي ثمرة هذا في توظيف أبنائه ، وخدمة الفقراء الكادحين في هذي الحياة .

تباع بأثمانها الحقيقية ؟ كلا يا طويل العمر ، تباع برخص التراب أو أرخص منه قليلا ، لا كثيرا أو كثيرا ، المناقصة مفتوحة لأبناء الوطن ؟ لا وألاف اللاءات ، ولكن للمحاسيب والمقربين فقط ، فقط ؟ نعم ، فقط فقط فقط .

اعترض قاضي القضاة على خصخصة بعض مشاريع الحديد والصلب ، ثم طالب الأجهزة الأمنية في بلده أن تبحث عن هاربين من السجن تحت طائلة الموضوع نفسه ، أقيل القاضي ، حق الرئيس أن يفعل هذا ، هو الرئيس الأعلى للبلاد هذا (الشدري) موظف عنده ، أو تحت إمرته ، لاشية في هذا ، ولا شك .

ولكن فجأة ثار الناس ، ارتفعت القضية إلى واجهة وسائل الإعلام ، سيما الفضائيات الفاضحة بالصوت والصورة ، وعلى مدى الساعة ، وفي أي ركن من أركان الدنا الواسعات ينقل الحدث لحظتها بالصوت والصورة ، بكل التفاصيل ، ومن جميع الزوايا والاتجاهات .

ولما استمرت المظاهرات مؤيدة للقاضي كان لابد من التصدي لها بمظاهرات أخرى معادية مناوئة ، ثم تخرج السيوف المجهولة من مكامنها لتحصد الفريقين المتظاهرين ، الموالي والمناوئ ، على السواء ؟ كلا كلا يا صاح ، تستوصي بالمعارضة شرا وقتلا ليقع القدر الأكبر من القتلى والمصابين على هذا الجانب ، وفي ذات الوقت لا تنسى المظاهرات المصنوعة تعطيها حظا من القتل والإصابات ، وإن بشكل أقل ، حتى قيل إن الحصيلة الأولية للضربة الأولى كانت قريب خمسين قتيلا ، والمصابون قريب مائة ، ولعلي أظن أن أعداد الضحايا أكبر من هذا .

في صبيحة الاثنين - ١٤ مايو ٢٠٠٧ - استيقظ الناس لتبشرهم وسائل الإعلام بأن أحد موظفي المحكمة العليا في الباكستان قد قتل أمام منزله ، وكل هذا من باب : (صب الزيت على النيران) المشتعلة المتأججة ، وكل هذا في البدء والنهاية يصب في مبدأ : (وجعل أهلها شيعا) .

كل هذا في إطار (إن فرعون علا في الأرض ، وجعل أهلها شيعا) فبما أن الناس خرجوا للتظاهر من أجل (شدري) فالحل بسيط ستوجد فرقة أخرى ، شيعة أخرى ضد هذا الرجل ، ثم يبدأ (الطخ في المليان) على الشيعتين[1]. وهكذا دواليك.

وكان علينا أيضا من باب الاستطراد الممل أن نذكر أن الغرب بقضه وقضيضه ، وكله وكليله قد تمكن أخيرا بعد ٨ سنوات من الجهد الجهيد من إنقاذ الممرضات والطبيب البلغار من حبل المشنقة بعد أن حقنوا أطفال العرب بالإيدز ، بل ذهب رئيس فرنسا نفسه لينقلهم بطائرة الرئاسة الفرنسية معززات مكرمات يستقبلن استقبال الأبطال والفاتحين في حاضرة بلغاريا ، في حين يرفض الأوروبيون فتح معبر رفح أمام ٦ آلف من عرب فلسطين أو يزيدون ، منهم ١٨٠٠ مصاب ومريض حتى بعد قضاء تسعين يوما على الحدود المصرية يتكففون الناس ، هذا هو الغرب ، هذه هي أوربة ، هذه هي حضارتهم : (إن فرعون علا في الأرض ، وجعل أهلها شيعا) .

١٠ـ وأخيرا ، أخيرا بعد أن أثقلت على القارئ الكريم في هذه الاستطرادة المملة الممضة التي تثير السأم والملالة نختم بالإشارة إلى استطلاع الرأي السنوي الذي قامت به مؤسسة (جالوب) للتعرف على اتجاهات المواطن الأمريكي والشباب (فوق ١٨ سنة) نحو ٢٥ دولة من دول العالم ، حيث أشارت النتائج إلى ما يلي :

أولا ـ التوجهات الإيجابية :

١ـ تسعة من كل عشرة من الأمريكيين لديهم اتجاهات إيجابية نحو كل من : (كندا ـ استراليا ـ بريطانيا) بنسبة ٩٠% تقريبا .

---

(١) وفي يوليو ٢٠٠٧ عاد (شدري) بقرار من المحكمة ، أو قل تغطية على اقتحام المسجد الأحمر الذي قدم من الضحايا ما يعلمه الرب ، سبحانه وتعالى .

٢ـ ثمانيـة من كل عشـرة أمريكيين لديهم اتجاهـات إيجابية نحـو : (ألمـانيا ـ اليابـان) ٨٣% تقريبا .
٣ـ سبعة من كل عشرة أمريكيين لديهم اتجاهات إيجابية نحو (البرازيل والهنـــد) ٧٠% تقريبا .
٤ـ ستة من كل عشـرة أمريكـان لديهم اتجاهـات إيجابيـة نحـو (إسرائيـل ـ مصـر ـ المكسيك) ٦٠% .
٥ـ خمسة من كل عشرة لديهم اتجاهـات إيجابيـة نحـو : (فرنسا ـ روسيا ـ تركيا ـ الأردن) ٥٠% .

ثانيا ـ التوجهات السلبية :
١ـ ستة من كل عشرة أمريكيين لديهم اتجاهات سلبية نحو (الصين ـ فنزويلا) .
٢ـ سبعة من كل عشرة أمريكيين لديهم اتجاهات سلبية نحو : (السعودية ـ باكستان).
٣ـ ثمانية من كل عشرة أمريكـان لديهـم اتجاهـات سلبيـة نحـو : (فلسطين ـ العراق ـ كوريا الشمالية ـ إيران) .

أما عن اتجاهات الشعب الأمريكي السلبية نحو مصر وإسرائيل فهي تشير إلى :
١ـ لم تتجاوز نسبة الأمريكيين ذوي التوجهات نحو مصر وإسرائيل عن ٣٥% خلال الفترة من ١٩٩١ إلى ٢٠٠٧ .
٢ـ شهد عام ٢٠٠١ أكبر نسبة فارق في التوجهات السلبية للشعب الأمريكي نحو مصر وإسرائيل ، بلغت ٢٣% للأولى ، وللثانية ٣٢% .
٣ـ شهد عام ٢٠٠٢ أكبر نسبة توجهات سلبية خلال فترة الاستطلاع (١٩٩١ـ ٢٠٠٧) وصلت هذه النسبة عن مصر إلى ٣٤% وإسرائيل ٣٥% .

٤ـ شهد استطلاع يناير ١٩٩١م أدنى مستوى للتوجهات السلبية نحو مصر وإسرائيل ، فعن مصر ١٥% فقط ، وإسرائيل ١٣% .

ويفسر بعض المحللين التوجهات السلبية نحو مصر من عام ١٩٩١ إلى ٢٠٠٧ بالأحداث الجسام التي وقعت في العالم العربي ، والإسلامي ، في الكويت والعراق وفلسطين ولبنان وباكستان وأفغانستان ، على اعتبار أن مصر دولة عربية إسلامية .

فماذا عن الدول الصديقة للولايات في ذياك الاستطلاع ؟ كيف جاء ترتيبها يا طويل العمر ، ويا فصيح اللسان ، سَلِس القلم والبيان ؟ :

١ـ جاءت كل من كندا وبريطانيا واستراليا وألمانيا واليابان والهند كدول حليفة لأمريكا وبشكل كبير .

٢ـ في حين جاءت كل من مصر وإسرائيل والمكسيك وفرنسا وروسيا كدول محايدة ، وذات توجهات إيجابية .

٣ـ أما تركيا والأردن وفنزويلا ، فقد جاءت كدول ذات توجهات أقل محايدة وفقا لآراء الشعب الأمريكي .

٤ـ السعودية وباكستان اعتبرتا من الدول ذات الاتجاهات السلبية .

٥ـ إلا أن أفغانستان وسوريا والسلطة الفلسطينية والعراق وكوريا الشمالية وإيران جاءت على قمة الدول ذات التوجهات السلبية .

بعض المحللين المصريين رأى في كل ما سبق مؤشر على نجاح السياسة الخارجية المصرية في وضع بلدنا كدولة محايدة وذات توجهات إيجابية ، وفقا لآراء الشعب الأمريكي ، وبناء علاقات دبلوماسية مميزة ومتمايزة وممتازة ، فضلا عن رأي واضح مستقل في مختلف القضايا السياسية الملحة والمعاصرة .

إلى هنا انتهى التقرير عن نتائج استطلاع جالوب ١٩٩١ـ ٢٠٠٧ ، لاشك تقرير مهم ، كلام أهم يحتاج إلى مناقشة تفصيلاته ومختلف نواحيه في مكان آخر مناسب ، حسبنا هنا أن نقول :

إن هذي التصنيفات كلها تدخل في إطار (... وجعل أهلها شيعا) تقسيم الدول من وجهة نظر الأمريكيين إلى دول صديقة وحليفة ومعادية ، ذات اتجاهات إيجابية أو سلبية نحو هذا البلد المتصدر في العالم ، وكل هذا تزكية لروح الانقسام والتعادي والتباغض بين البشر .

هذا الاستطلاع على افتراض صدقه ، أو صدقه الكامل ، فإنه ثمرة للجهود الإعلامية الجبارة التي تنفخ في نار الفرقة والخلاف بين الناس ، وفي ذات الوقت هو جزء من معطيات الآلة الإعلامية الغربية بجيوشها الجرارة التي تجر العالم نحو الاصطفاف حول : (... وجعل أهلها شيعا) .

وحسبنا حسبنا ما قلنا وما سطرنا عن هذا المبدأ المهم الذي يعليه الاستعمار الغربي قديمه والجديد ، هذا المبدأ الذي يصادم تماما المبدأ القرآني :
(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) ليعرف بعضكم بعضا ، فقط ؟ فقط فقط ، ثم تستمر الآية : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)[1] .

والآن نعود سراعا سراعا إلى صفات الفرعون مرة أخرى ، والعود لنا وللجميع أحمد وأسعد :

---

(١) ١٣ الحجرات .

أحد عشر ـ ما رأيكم إلا ما أرى : من صفات الفراعين والظالمين ما جاء في التنزيل ردا على مؤمن آل فرعون عندما أراد الأخير قتل نبي الله موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لكن الرجل الذي كان يخفي إيمانه لا يمل يعظ قومه من سوء العاقبة إن هم قتلوا رسول رب العالمين :

(قال فرعون : ما رأيكم إلا ما أرى

وما أهديكم إلا سبيل الرشاد)

هـذي صفة مهمة من صفات الظالمين المتفرعنين ، إنها ادعاء أن رأيه فقط فقط هو الصواب، الذي لا صواب بعده ، بل إن ظلمه وسبيله المظلم هو سبيل الرشـاد الوحـيد ، أين هذا من أخلاق القرآن الكريم ، وأخلاق الإسلام العظيم ، ومنها :

١ـ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ [(١)] .

انظر أخي الكريم كيف أمر قرآننا نبي الله ، محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأدب الخطاب إلى الكافرين الجاحدين ، إنه لا يقول لهم : (وما أريكم إلا ما أرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) كما يقول الظالم المستبد ، برغم أن سبيل الأنبياء هو سبيل الرشاد حقا ، بل يقول النبي الأكرم : (وإنا أو إياكم ...) فريق منا ، إما نحن وإما أنتم (لعلى هدى أو في ضلال مبين) مع أن نبينا على يقين تام بأنه على هدى ، وهم يقينا يقينا ، لا شية فيه (في ضلال مبين) ومع هذا لا يواجههم بهذا ، بل يفاجئهم بلطف الحديث ومهذّبه ورقيقه .

(١) ٢٤ سبأ .

٢ـ وفي الآية التي تلي الآية السابقة : (قُل لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ[١]) يقول في الميزان[٢] : (وفي التعبير عن عمل أنفسهم) عمل النبي ومن معه الذي عبر عنه (بالإجرام ، وفي ناحية المشركين بقوله ـ تعملون ـ ولم يقل تجرمون أخذ بحسن الأدب في المناظرة) هذي أخلاق القرآن وأخلاق الإسلام ، فأين هذا من أخلاق الظالمين المستبدين .

٣ـ وفي ذات السورة[٣] ـ سبأ ـ جاء قوله تعالى : (قل) أي قل يا محمد : (قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ) .

ترى ـ أيها القارئ ـ كيف قدم التنزيل أمره إلى النبي (إن ضللت) على : (وإن اهتديت) وهل يضل رسول الله ؟ كلا والله لا يكون ولا يكون ، وإنما هو أدب الخطاب والتواضع الكبير في محاججة عتاة الظالمين الجاحدين .

٤ـ وانظر إلى القرآن الكريم يعيب على الكافرين كفرهم وجحودهم ؟ كلا يا أخا العرب والعجم ، بل يعيب عليهم غياب البرهان والدليل ، في تنزيل رب العالمين : (وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ[٤]) . فالعيب والخطأ والخطل هو غياب البرهان .

أما تعبير : (قل هاتوا برهانكم) فقد جاء بنفس الصيغة ٤ مرات في القرآن الكريم ، وفي أربع سور : (الأنبياء ـ البقرة ـ النمل ـ القصص) إذ إن هذا التعبير القرآني المفحم هو شعار كل رسل الله إلى البشر :

قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ٢٤ الأنبياء.

---

(١) ٢٥ سبأ .
(٢) ٣٨١/١٦ .
(٣) الآية ٥٠ .
(٤) ١١٧ المؤمنون .

قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ	١١١ البقرة
قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ	٦٤ النمل
قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ	٧٥ القصص

ليس شعار الأنبياء والرسل فقط ، بل شعار كل المؤمنين الشفيقين الشفقاء بكل البشر ، الحريصين الحرصاء على خلق الله أن تكون عاقبتهم نار الله وعذابه .

٥ـ وفي قول ربنا : (وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ [١] ...) تعبير لطيف ، ذو ظل ظليل ، فمن رغب عن ملة إبراهيم ليس كفر وطغى أو نافق وظلم ، ولكن (سفه نفسه) أي : (جهل نفسه، لم يفكر في نفسه ، فوضع سفه موضع جهل ، أو معناه سفه في نفسه) أي في حق نفسه (فحذف في ، كما حذف من في قوله : (واختار موسى قومه ، أي من قومه) وكما حذف : على في[٢] قوله : ولا تعزموا عقدة النكاح ، أي على عقدة النكاح .

هذي الأخلاق وتيكم المدرسة التي تخرج فيها فحول الفقهاء ، الذين وضعوا أسسا مهمة للتفكير الإسلامي ، بل للتفكير الإنساني عامة ، منها :

- رأينا صواب يحتمل الخطأ .
- رأي غيرنا خطأ يحتمل الصواب .
- نحن مع الدليل نميل حيث نميل .

إنها حقا مدرسة قل هاتوا برهانكم ، ليست مدرسة الجاهلية الحمقاء ، صاحبة : (ما أريكم إلا ما أرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) .

---

(١) ١٣٠ البقرة .
(٢) النسفي ٧٥/١ .

إذا سمعت من يعلن هذا الشعار (ما أريكم إلا ...) ومن يعلي من شانه فاعلم أنه مستبد فاشل ، ضال مضل ، فاسد مفسد .

إن هذه الدنيا فيها من المسموح أكثر بكثير جدا من الممنوع المحظور ، فماعدا هذي الثوابت الأربعة ، فإن كل شيء عداها قابل للتفاهم والتفاوض ، والأخذ والرد ، فما هذي الثوابت التي لا تزيد عن الأربعة :

- الله خير مطلق .
- الشيطان شر مطلق .

الثابت في هذي الحياة المقطوع به شيئان يكملان الرباعية :

- الوحي ، وما جاء منه عن رب العزة .
- الحقائق العلمية الثابتة .

انظر إلى هذي الحكاية من سيرة سيد الخلق - صلى الله عليه وسلم - والتي جاءت في سيرة بن هشام[1] :

عندما نزل سيد الخلق أدنى ماءٍ من بدر، قال الحُباب بن المنذر بن الجموح : يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله ، ليس لنا أن نتقدمه ، أو نتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟

ويجيب سيد الخلق: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، ويرد الصحابي الجليل : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم ، فننزله ، ثم نغور[2] ما وراءه من القُلُب[1] - آبار المياه - ثم نبني عليه حوضا فنملؤه بالماء ، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون ، فقال سيد الخلق : لقد أشرت بالرأي .

---

(١) ٦٢٠/٢ .
(٢) ندفن ونطمس .

ونـزل النبي الأكـرم ـ صلى الله عليـه وسلم ـ على الـرأي الآخـر ، وكـان هـذا الموقع الذي َعسكر فيه الجيش سببا من أسباب انتصار المسلمين في موقعة بدر .

ونـنـتقل مـن معركة بـدر فـي الـسنة[2] الثانـية للهجـرة الـنبوية الـشريفة إلـى معركة الأحزاب في العام الهجري الخامس ، لقد جمعت قريش وبالتحالف مع اليهود أقوى جيش عرفته الجزيـرة العربية ، وعندما عرف المصطفى أخبار هذا الجيش العرمرم جمع الصَّحْب الكرام ليستشيرهم ، وهنا أشار سليمان بحفر الخندق ، فهل شـهر فـي وجهه شعار : (مـا أريكم إلا مـا أرى ، ومـا أهديكم إلا سبيل الرشاد) ؟ كلا كـلا، مـا كـان هذا شيمة رجل تخلق بخلـق القرآن ، بل كـان خلقه القرآن ، أدبه ربه فأحسن تأديبه.

ونفذ المقترح السلماني، ووقف العرب مشدوهين أمام هذا الاختراع العجيب، لـم يـصادفوا مـثله فـي حياتهم ، ولا فـي تـاريخ سـالفيهم والأجـداد ، جيش الأحـزاب عـسكر أمـام الخـندق ، الـذي يقـع أقـصى الـشمال مـن المديـنة المـباركة ، ويعـسكر المـسلمون إلـى جنوبه ، وفجـأة وإذ بـيهود بنـي قـريظة ينقـضون العهد بفعل وسعي المـشئوم حيي بن أخطب ، وكانـت مساكن هؤلاء الغادرين تقع إلى الجنوب الشرقي للخندق ، جنوب البقـيع تمامـا بـتمام ، وإلى الشمال الشرقي من منازل بني النضير ، وإلى الجنوب الشرقي من منازل بني قينقاع .

وهنا أصبح المسلمون بين فكي كماشة ، الأحزاب في الشمال ، واليهود في الجنـوب : (إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ

---

(١) القُلب مفرد قليب : بئر الماء .
(٢) وقعت غزوة بدر ١٧ رمضان ٢هـ ، الموافق ١٣ مارس ٦٢٤م .

الحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ المُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً)[1] .

وهنا هب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليصالح غطفان على ثلث ثمار المدينة حتى يرجعوا عن الأحزاب ، وهنا كان هذا الحوار بين النبي الأكرم وبين السعدين ، سعد بن عبادة وسعد بن معاذ ، في سيرة ابن هشام[2] :

لما اشتد على الناس البلاء ـ بسبب الأحزاب ـ بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى عينية بن حصن وإلى الحارث بن عوف قائدي غطفان ، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما من قوات حتى كتبوا كتاب الصلح ، (ولم تقع الشهادة ، ولا عزيمة الصلح ، إلا المراوضة في ذلك) .

وقبل أن يدخل الصلح حيز التنفيذ والإشهاد بعث سيد الأولين والآخرين السيدين المبجلين زعيمي الأنصار ، فذكر ما كان من أمر الصلح مع الجيش الغطفاني ، وليستشيرهما فيما عزم عليه وارتآه .

النبي الأكرم يقول لأصحابه .. وهو رسول موحى إليه : لقد أعطيت الناس كلمة ووعداً بالصلح ، وما أنا بمُسْطيع أن أرجع عن كلمتي وو عدي ؟ كلا وألف كلا بعدها وقبلها ، لكنه طرح الأمر للمشاورة ، فماذا قال الرجلان المهيبان المهابان ، لقد قالا بالنص والحرف :

يا رسول الله :

- أمرا نُحبه فنصنعه ؟ .
- أم شيئا أمرك الله به ، لابد لنا من العمل به ؟ .
- أم شيئا تصنعه لنا ؟ .

---

(١) ١٠ الأحزاب.
(٢) ٢٢٣/٣ .

إنهما في البداية أقرا للنبي بالرسالة ، فقالوا : (يا رسول الله) فهل هذا مبرر كاف / كافي لعدم مناقشة الرأي المقترح ؟ كلا .

ثم إنهما بدآ بأنفسهم ، فقالا : (أمرا نحبه فنصنعه؟) هل ترى- يا رسول الله - أن مواجهة الأحزاب قد ضعضعتنا ومن ثم نحن نميل الآن للصلح مع فريق منهم ؟ هذا هو السؤال الأول .

والسؤال الثاني وهو مضرب القصة والمثل والاستشهاد هنا (شيئا أمرك به الله ؟) هل هذا وحي جاء من السماء تأمرنا به ، ولذا (لابد لنا من العمل به) وهنا لا كلام ولا مناص من تنفيذ ما أمر به رب السماوات والأرضين ، لا رأى لأحد حتى للنبي الأكرم - صلى الله عليه وسلم -

وفي الآخر ، السؤال : (أم شيئا تصنعه لنا ؟) .. ويجيب سيدنا محمد : (بل شيء أصنعه لكم) ولا يكتفي بهذا ، بل يبرر هذا الصنيع بالقسم : (والله ، ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم[1] من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما) .

وانظر إلى الصحابي المتألق سعد بن معاذ يقول لسيد الأولين والآخرين : (يا رسول الله) إنه يبدأ بالرسالة مرة أخرى (يا رسول الله : قد كنا نحن وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ، ولا نعرفه ، وهم لا يطمحون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعا ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له ، وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا !! والله ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم) .

---

(١) اشتدوا عليكم .

كل هذا الكلام قاله سعد لنبي الله المرسل المؤيد بوحي السماء ؟ نعم نعم ، فهل قال السيد الأكرم : (ما أريكم إلا ما أرى، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ؟) كلا كلا، هل قال بأنه الزعيم والقائد والملهم؟ لقد كان يرى الصلح لما ساق من مبررات قبلا ، لكنه عند إصرار زعيمي الأنصار على رفض الصلح المقترح ما زاد عن قوله لسعد ابن معاذ : (فأنت وذاك) .

هذا درس من الدروس النبوية المهمة لكل من جلس على مقعد القيادة والإدارة ، خاصة في المستويات الدنيا من هاتيك القيادة ، ينزل على رأي الناس ورغبتهم ما لم يك إثم أو محظور ، أو منزلق .

ولم يكتف ابن معاذ بما قال ، بل تناول صحيفة الصلح فمحا ما فيها من الكتابة ليعلن أمام نبيه رفضه المدوي للصلح مع الأحزاب ، أو غطفان معلنا :

ليجهدوا علينا .

انتهينا من الصفة الحادية عشرة ، وندخل إلى التي تليها سراعا سراعا :

ثاني عشر - التطاول على حرية الآخرين : لم يكتف فرعون بشعار : (ما أريكم إلا ... وما أهديكم إلا ...) بل أضاف مبدأ آخر ، صفة أخرى مؤدية إلى التخلف ، مودية بحياة البشر ، إنها التطاول على حرية الآخرين حتى في خاصة خويصة خُوَيِّصَّته[1] أنفسهم ، إنه الإيمان بالله وبرسوله موسى - عليه الصلاة والسلام :

قال فرعون : (آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أن آذَنَ لَكُمْ إنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي المَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ[2]) .

---

(١) تصغير (خاصة) .
(٢) ١٢٣ الأعراف .

فإن رغب القلب في الإيمان بالله أو برسول من رسله فعلى حسب تصور فرعون أن آخذ منه الإذن أولا ، إنه لا يتحدث عن حقيقة الإيمان أو غيابها ، وإنما يتحدث عن أمر آخر غاية في الحقارة والحِشَرية (التطفل) على حرية الآخرين والتطاول عليها وعليهم ، وهو أنه لابد في كل شيء - مهما كان شخصيا وخصوصيا - أن لا يتم قبل إذن من فرعون .

والأمر لا يقتصر على ما سبق ، بل يتعداه إلى اتهام هؤلاء المساكين المسالمين : (إنَّ هَـذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ) مكر وتآمر في البلد ضد فرعون ومن معه ، ثم كيل الاتهامات وتحميل المؤمنين ما لم يفعلوا أو يفكروا فيه ، إن هذا لمكر جاء بهدف صنعه فرعون بخياله واتهامه الظالم المخترع (لتخرجوا منها أهلها ...) وقبل أن نستمر مع آيات سورة الأعراف نشير إلى ما جاء من تفسيرها عند ابن كثير[1] .

(إنَّ هَـذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ ...) إن غلبة موسى لكم أيها السحرة في يومكم هذا ! إنما جاء عن تآمر واتفاق ورضا منكم ، وكأنها مباراة اتفق الفريقان - وراء الكواليس - على نتيجتها مسبقا قبل بدء المباراة .

وفي موضع آخر يتهم نبي الله موسى - عليه الصلاة والسلام - بهذه التهمة النكراء : (إنه) أي موسى (لكبيركم الذي علمكم السحر) تهمة يعلم فرعون نفسه أنها باطلة تمام البطلان ، فإن موسى - عليه السلام - بمجرد أن جاء من مدين - التي تقع - شمال غرب المملكة العربية السعودية على الساحل الشرقي لخليج العقبة الواقع شمال شرق البحر الأحمر - بمجرد أن جاء من هناك توجه موسى إلى فرعون

---

(١) ٢٣٨/٢ .

لدعوته إلى الله.

ثم أتى بالمعجزات تترى وتتواتر على صدق ما جاء به عن رب العزة ، وفور هذا وبدون انتظار أو تراخي هاج فرعون وماج فأرسل في مدائن ملكه وأعمال سلطنته ، فجمع سحرة من سائر أقاليم مصر وبلداتها ، ممن اختار هو ، والملأ من حوله ، وأحضرهم عنده ، ووعدهم بجزيل العطاء مع السخاء .

ولذا كان السحرة من أحرص الناس على الانتصار على موسى ، وتأييد فرعون ، ونيل الخطوة والأجر لديه، موسى ـ عليه السلام ـ لم يك يعرف أحدا منهم ، لا اجتمع به ، ولا رآه قط ، فرعون نفسه متيقن متأكد من هذا ، إنما قال هذا خداعا وتدليسا على العامة والساذجين الجاهلين .

ويذكر ابن كثير أن موسى ـ عليه السلام ـ التقى أمير السحرة، فقال موسى : أرأيتك إن غلبتك ، أتؤمن بي ، وتشهد أن ما جئت به حق ؟ قال رئيس السحرة : لآتين غدا بسحر لا يغلبه سحر ، والله لئن غلبتني لأومنن بك ، ولأشهدن أنك حق ، وكان هذا بحضور فرعون وهو ينظر إليهما ، ولذا عندما آمن السحرة قال الرجل ما قال .

وقوله : (لتخرجوا منها أهلها) أي تجتمعون أيها السحرة مع موسى وتتحالفون لتكون لكم الدولة والصولة والحكم ، وتطردوا من مصر الأكابر والرؤساء والحكام ، لتصير الدولة والتصرف لكم والبلد لكم وحدكم ، دون أهلها وأصحابها .

ويعلن فرعون عن تهديده الصارم (فسوف تعلمون) ولم يأخذ وقتا قليلا أو كثيرا في إعداد العقوبة الفرعونية لمن آمن بموسى قبل الحصول على إذن من سيادته ، فكانت العقوبة المُبْدعة :

لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ[1] خِلَافٍ .

بقطع يد الرجل اليمنى ورجله اليسرى أو العكس ، أي الرجل اليسرى واليد اليمنى ، لقد هذا الابتكار الذي يستحق براءة اختراع مدوية لم يشف غليل فرعون ، بل أضاف إليها عقوبة أخرى :

(ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ[2])

وفي آية أخرى :

(في جذوع النخل)

أي على الجذوع ، ولكن بشدة إلصاق المصلوب على النخيل كان كأنه فيها ، وليس عليها ، قال ابن عباس : فكان فرعون أول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف ، وأول من صلب في تاريخ البشرية .

ويقول ابن عباس أيضا : (كانوا في أول النهار ـ كما أوضحنا ـ سحرة ، وفي آخره شهداء[3]) بررة ، وكأن فرعون أنزل عقوبته المبتكرة عاجلة نفذت في ذات النهار ، لم يتركهم إلى اليوم التالي ولا إلى ليل نفس اليوم ، إنها بركات الفرعون وتكرماته على المخاليق .

---

(١) ١٢٤ الأعراف .
(٢) ١٢٤ الأعراف .
(٣) ابن كثير ، انظر ص٢٣٨ .

ثالث عشر ـ استخف قومه : إن فرعون لم يستخف بقومه فقط ، بل استخف بكل شيء ، ولنبدأ المسألة من أولها ، في سورة الزخرف : (ونادى فرعون في قومه) لم يناد قومه ، بل نادى فيهم ليكون شديد التأثير فيهم ، فماذا قال ؟ (قال يا قوم : أليس لي ملك مصر؟) بلى ، لك ملك مصر (وهذه الأنهار تجري من تحتي؟) وهذه الأنهار تجري من تحتك (أفلا تبصرون ؟) بكل توكيد يبصر الناس جميعا الأنهار التي تجري من تحته .

جاء في تفسير الكشاف[1] : (ونادى فرعون في قومه) جعلهم محلا لندائه ، وموقعا له ، والمعنى أنه أمر بالنداء في مجامعهم وأماكنهم من نادي فيها بذلك ، فأسند النداء إليه ، كما تقول (كافأ الأمير اللص) إذا أمر بمكافأته ، وربما لم يقم بنفسه بمكافأة اللص .

ويجوز أن يكون عنده عظماء المصريين ووجهائهم فيرفع صوته بذلك فيما بينهم ، ثم ينشر عنه في جموع الناس ، فكأنه نادى به بينهم ، فقال : (أليس لي ملك مصر ، وهذه الأنهار تجري من تحتي) أي من تحت قصره ، وقيل : تجري بين يديه ، أي في جنانه وبساتينه .

قال الزمخشري : (وليت شعري ، كيف ارتقت إلى دعوة الربوبية همة من تعظم بملك مصر ، وعجب الناس من مدى عظمته ، وأمر فنودي بها في أسواق مصر ، وأزقتها لئلا تخفى تلك الأبهة والجلال على صغير ، ولا كبير ، وحتى يتربع في صدر الدهماء مقدار عزته وملكوته) .

ويحكى أن الرشيد عندما قرأ هذه الآية عن مصر ، قال لأولينها أخسّ

(١) ٤٢٢/٣ .

عبيدي ، فولاها الخصيب ، وكان مسئولا عن وضوئه ، وقيل بأن هذا الخصيب لما وليها وخرج إليها ، وشارفها ، ووقع بصره عليها أول مرة ، قال : أهي القرية التي افتخر بها فرعون ، فقال : أليس لي ملك مصر ، والله لهي أقل عندي من أدخلها ، فثنى عنان فرسه .

هذا ما قيل عن الرشيد - وليس من اسمه نصيب - وعن مدير وضوئه ، فلعل الأخير رأي تخوم مصر الصحراوية فتوهم أن هذا الحوف - الحافة - من الصحراء ، هو أو هي مصر التي وصفها فرعون .

ويعود فرعون ليقارن بينه وبين موسى صائحا : (أم أنا خير من الذي هو مهين ، ولا يكاد يبين) وصف موسى بصفتين ، هما (مهين) ضعيف حقير (ولا يكاد يبين) كلامه ، لما به من الرتة (الحبسة) في بداية الكلام .

(لولا ألقي عليه سورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين) ولو أن موسى كان ملكا مثل فرعون، فإن إلقاء الأسورة عليه معناه إلقاء مقاليد الملك إليه ، لأنهم كانوا إذا أرادوا تسويد الرجل سوروه بسوار وطوقوه بطوق من ذهب ، وإن لم يك موسى كذلك فلماذا لم تأت معه الملائكة مقترنين به ، تعاضده وتناصره .

انتهى اقتباسنا من تفسير الكشاف بتصرف

للآيات ١ - ٥٣ الزخرف

(فاسْتَخَفَّ قوْمَهُ فأطاعُوهُ إنَّهُمْ كَانُوا قوْماً فاسِقِينَ [١])

استخف قومه ، أي استخف عقول قومه (فأطاعوه) بما دعاهم إليه ، لقد احتج عليهم بغير الحق ، وبغير دليل مقنع عندما قال : (أليس لي ملك ...) إلخ ولو

---

(١) ٥٤ الزخرف .

أعملوا شيئا من عقولهم لأدركوا أن ملك مصر والأنهار التي تجري من تحت قصور فرعون ، كل هذا ليس دلالة أو دليلا على أن صاحب هذي الأشياء على حق ، فالمعجزات وليس أن يأتي مع الرسول ملك ، هي الدليل على صدق من أرسله رب الناس إلى مخاليقه .

والآية تفسر سبب إطاعة فرعون برغم استخفافه بهؤلاء الناس بـ (إنهم كانوا قوما فاسقين) خارجين عن طاعة الله[1] ، جل وعلا .

الآية هنا توازن بين مسئولية فرعون الذي استخف بعقول قومه ، وبين قومه الذين أطاعوه ، واستجابوا له على ضلالة وإضلالة ، حيث لا يعفى أحد من المسئولية ، المضلِل الذي قام بالإضلال ، والمضلل الذي قبل وأطاع ، كلاهما في العذاب سواء بسواء ، تماما تماما كما جاء في التنزيل :

- (وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ[2]) .

- (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[3]).

وهذا حوار آخر بين الذين اتُّبعوا - بتاء مشددة مفتوحة - وبين الذين اتَّبعوا -

(١) الطبرسي : مجمع البيان ٦٧/٩ .
(٢) ٢١ إبراهيم .
(٣) ٢٢ إبراهيم .

بضم التاء المشددة ـ ننقله من سورة البقرة[1].

ـ (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أشَدُّ حُبّاً لِّلهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إذْ يَرَوْنَ العَذَابَ أنَّ القُوَّةَ لِلهِ جَمِيعاً وَأنَّ اللهَ شَدِيدُ العَذَابِ) .

ـ (إذْ تَبَرَّأ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا العَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأسْبَابُ).

ـ (وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ) .

وكذلك لا يعفي الناس من المسئولية ما يصنعه الأئمة الذين يدعون إلى النار والضلال ، يوم القيامة سيتخلى هؤلاء الأئمة عمن اقتدى بهم في الشر والندامة ، وهكذا ..

وعليه فإن من استخف بعقول الناس وبذكائهم فإن فيه صفة من صفات فرعون البارزة الضالة المضللة .. من أطاع من استخف بعقله هو الآخر مسئول عن هذي الطاعة ، ولا يعفى من عذاب الله يوم الدين ، كما جاء في الآيات السابقات .

ومن هذي الصفة ننتقل إلى الصفة التالية من صفات فرعون ، إنها :

رابع عشر ـ وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون : صفة أخرى مهمة من صفات فرعون ، بل أس وأساس لكل شرور هذي الشخصية ، إنه الشك في أمر الآخرة ، وهذه مسألة محورية في حياة الإنسان .

---

(1) الآيات ١٦٥ : ١٦٧.

اليقين بالآخرة ، وبالعودة إلى رب العزة للحساب والعقاب يؤدي بالإنسان إلى الاتزان والموضوعية والاستقامة في هذي الدنيا ، لأنه محاسب عن الصغير والكبير والتافه والحقير والفتيل والقطمير ، فإن اهتز يقينه بالآخرة جاءت كل الشرور والثبور وعظائم الشرور وعسير الأمور .

جاء في سورة القصص[1] : (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي!!) فما المطلوب يا فرعون : (فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ) فماذا سمى القرآن ما سبق ؟ سماه بالاستكبار قال تعالى : (وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ) في أرض مصر فما السبب في هذا الاستكبار المقيت ؟ (وَظَنُّوا) فرعون وجنوده ، ماذا ظنوا ؟ لقد شكوا في (أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ) وهذا عكس الحقيقة ، تماما تماما بتمام ، لقد رجعوا إلى ربهم ، ونالوا ما يستحقون من عقاب أليم شديد ، كما سيأتي .

خامس عشر ـ التعبئة والكيد ضد الآخر : من خصائص الشخصية السوية الآدمية المسالمة والمحايِدة ، وعدم الانجرار إلى الصراع والتعارك إلا عندما تدعو الضرورة إلى هذا ، انظر إلى هدي سيد الخلق :

لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، وإذا لقيتموه
فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف[2].

هذا هدي الرسول الأكرم ، وهذا طرف من هدي أمير المؤمنين ـ كرم الله وجهه دائما ونضره ـ إذ يحكي أن فارس العرب، عمرو بن عبد وُدّ قاتل يوم بدر حتى أثخنته الجراح ، فلم يشهد أحدا ، فلما كان يوم الخندق خرج مُعْلما ليُري مكانه ،

---

(١) ٣٨ ، ٣٩ .
(٢) العجلوني : كشف الخفاء ٣٤٩/٢ .

وفي يوم الخندق وقف يتحدى الجيش بكامله ، يقول : أيها الناس ، ألستم تزعمون أن من قتل منكم دخل الجنة ، فمن يرغب منكم في دخول الجنة ، يعني من يرغب منكم في أن أقتله؟.

ويصمت الجيش ومن فيه إلا عليا - رضي الله عنه - الذي أصر على الخروج إليه برغم حداثة سنه حتى قال له الطاغية : (في أعمامك من هو أسن منكم) .

يخرج - عليه السلام - إلى الطاغية الذي يتحدى جيشا بأكمله ، فهل يهوي بسيفه على هذا الرأس العنيد المعاند ؟ أيدعوه إلى المبارزة والنزال ؟ كلا ، إنه يحاوره ليقول : يا عمرو ، إنك كنت عاهدت الله أن لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلّتين إلا أخذتها منه ، يجيب :

عمرو : أجل .

الإمام علي : فإني أدعوك إلى الله ، وإلى رسوله ؟ .

عمرو : لا حاجة لي بذلك .

الإمام علي : فإني أدعوك إلى النزال ؟ .

عمرو : لمَ يا ابن أخي ؟ فوالله ما أحب أن أقتلك .

الإمام علي : لكني والله - أحب أن أقتلك .

فحمي عمرو واشتد غضبه ، فاقتحِم عن فرسه ، فعقره - قطع إحدى قوائمه حتى لا يصلح للركوب بعد ذلك - ثم ضرب وجه الفرس ، وتوجه إلى الإمام ، وفي النهاية قتل عمرو[1] .

ترى كيف يحاول علي - رضي الله عنه - التفاهم معه بالإقناع ، يجادله بالتي

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ٣/٢٢٤ .

هي أحسن ، حتى في هذا الموقف العصيب ، إنه في البداية ليس حريصا على قتله ، بل هو على العكس حريص شديد الحرص على سلامته وعافيته .

وفي رواية أخرى يخيره ـ نضر الله وجهه ـ بين ثلاث ، أن يرجع من حيث أتى؟ لكنه الفارس المتعجرف يرفض هذا الخيار ، أما الثاني وهو شهادة أن لا إله إلا الله ، عمرو يرفضه ، وينتهي به إلى الخيار الأخير ، وهو القتال ، والذي جعله الإمام آخر الخيارات لديه ، المبارزة ، كل هذا حرصا على حياة عدوه الباغي المتغطرس ، وبشكل فاق كل الحدود والتصورات .

وفي وصية أمير المؤمنين إلى عسكره قبل لقاء العدو في صفين : (لا تقاتلوهم حتى يبدءوكم، فإنكم بحمد الله على حجة ، وتركم إياهم حتى يبدءوكم حجة أخرى لكم عليهم .

فإذا كانت الهزيمة ـ بإذن الله ـ فلا تقتلوا مدبرا ، ولا تصيبوا مُعْورا ـ مستسلما ـ ولا تجهزوا على جريح ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تمثلوا بقتيل ، فإذا وصلتم إلى رحال القوم ، فلا تهتكوا سترا ، ولا تدخلوا دار إلا بإذني ، ولا تأخذوا شيئا من أموالهم إلا ما وجدتم في عسكرهم .

ولا تهيجوا النساء بأذى ، وإن شتمن أعراضكم وسبَبْن أمراءكم[1] ... انتهى الاقتباس عن أمير المؤمنين .

هذي هي أخلاق المسلمين ، أخلاق الأسوياء في هذه الدنيا ، أما فرعون ومن لف لفه واتبع هواه وسنته فله اتجاه آخر ، وسلوك مختلف إنه يسعى إلى الحرب والشر بكل ما أوتي من قوة وطاقة ، يقول المولى ـ عز وجل ـ (كُلَّمَا أَوْقَدُوا

(١) الحوفي : بلاغة الإمام علي ، ص ١٧٦ ـ ١٧٧ .

نـاراً لّلحَرْبِ أطفَأهَا اللـهُ[1] ...) ولا يكتفون بهذا ، بـل كلمـا أطفـأ الله نـارا للحـرب أوقدوها وأشعلوها مرة أخرى ، وفي أي مكان من أرض الله ، حتى لو كانت أرضهم وديارهم : (يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ[2]) وفي سورة المنافقون : (يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى[3] يُؤْفَكُونَ) .

مـاذا فعل فرعـون ـ علـى أيـة حـال ـ عنـدما جـاء رسـول الله موسـى ـ عليـه الصلاة والسلام ـ آمن ؟ كلا وألف مليون كلا ؟ هل ترك الناس يختارون ما يشاءون ، ويقررون بأيديهم مصائرهم ؟ ولا هذه فعلها ، بل تحكي الآيات :

١ـ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ، قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ، فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنتَ مَكَاناً سُوًى ، قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ، فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى[4] .

٢ـ وفي سورة الشعراء : (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ، فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ، إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ، وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ، وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ، فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ، كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ[5] .

وهكذا لم يكتـف فرعـون أن يكذب بكل الآيـات التي رآها ، ويأبى إلا الكفـران

---

(١) ٦٤ المائدة .
(٢) ٢ الحشر .
(٣) ٤ المنافقون .
(٤) ٥٦ : ٦٠ طه .
(٥) ٥٢ : ٦٠ .

والنكران ، ثم يرمي موسى بالاتهامات الملفقة (قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ) ثم يحشد السحرة وبجيشهم ضد موسى ، عليه الصلاة والسلام .

يتولى ليستجمع كل صنوف الكيد ، وحين يهرب منه المؤمنون إلى الشرق ، لا يتركهم يغادرون بلده في أمان ، ولكن يحشد لهم الجيش الجرار للحاق بهم والقضاء عليهم مدعيا بأنهم (لشرذمة قليلون ، وإنهم لنا لغائظون) قلة حاقدة هم ، يجب القضاء المبرم عليهم ، يعظ قومه (وإنا لجميع حاذرون) ولا يكتفي القوم بهذا ، لكنهم أيضا طاردوهم (فأتبعوهم مشرقين) طاردوهم ، أو طاروا خلفهم إلى الشرق ، على ما سيأتي تفصيله ، فيما بعد .

نفس الشيء حدث مع محمد سيد الخلق ، هاجر بأصحابه إلى المدينة المطهرة ، فهل تركتهم قريش وصناديدها وعتاتها ؟ كلا ، ذهبوا إلى المدينة لاقتلاع شأفة المسلمين :

١ـ في بدر ذهبوا إليهم ، وقد نجت القافلة ، وقال عتبة أحد المبارزين قبل المعركة : (اعصبوها برأسي ، وقولوا : جن عتبة ، وأنتم تعلمون أني لست بأجبنكم) ولكن صلف القادة الآخرين وغرورهم دفعت بهم إلى حتفهم ، وعلى رأسهم عمرو بن هشام ، أبو جهل .

٢ـ وفي أحد ، وفي الخندق ، ذهبوا إليهم في المدينة ، لاستئصالهم في عقر دارهم ، ولم يذهب إليهم المسلمون في مكة إلا بقصد العمرة ، ثم كان فتح مكة في العام الثامن للهجرة ، بعد أن أعيت المسلمين الحيل مع المشركين ، وقد فتحها المسلمون دون إراقة ما يذكر من الدماء .

وكان حريا بالقوم أن يمنعوا النظر إلى الرأي السديد الذي اقترحه عليهم مبعوثهم إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والذي عرضه عليه (المال والشرف

والملك) وعندما رفض سيد الخلق هذه الرِّشا ، ولم يقتنع بما عرض عليه ، قال سفيرهم عتبة بن ربيعة ، وكان ذا رأي : يا معشر قريش ، أطيعوني ، واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به) وكان هذا نعم الرأي ، ونعم المشورة .

ولكن مستمعيه من مشيخة قريش قالوا : سحرك ـ والله ـ يا أبا الوليد بلسانه فقال (هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم[1]) لقد أصبت يا أبا الوليد ، ولكن القوم سدروا في غيهم وصلفهم .

إن أبا الوليد نفسه هذا من أشار إلى جيش قريش بالانسحاب من بدر وأن يعصبوها برأسه ، وإن كان في المبارزة قبيل القتال تقدم مع أخيه شيبة بن ربيعة ، وابنه الوليد بن عتبة ، فهند زوج أبي سفيان وأم معاوية التي مضغت كبد الحمزة عم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هي هند بنت عتبة بن ربيعة .

على أية حال فإن عتبة كرر قبل القتال شيئا من عبارته السابقة التي قالها لقومه في مكة ، وهي : (فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرَّضوا منه ما تريدون) .

ولكن أبا جهل اعترض بشدة ، فكان مما قال : (ولكنه ـ أي عتبة ـ قد رأى أن محمدا وأصحابه أكلة جذور ، وفيهم ابنه فقد تخوفكم عليه[2] ...) وسارت الأمور بما لا تشتهي السُّفِن ، وقامت معركة بدر التي قتل فيها صناديد قريش وعلى رأسهم أبو جهل نفسه .

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٢٩٤ .
(٢) السابق ٢/٦٢٣ .

وحين رأى الابن المسلم مقتل أبيه عتبة حزن عليه حزنا شديدا ، لقد كان ذا رأي سديد ـ كما رأينا ـ وكان ابنه يحدوه الأمل في إسلامه وهدايته .

وانظر إلى الشخصية الجاهلية المتفرعنة تسعى إلى حتفها بظلفها ، لقد سعى أبو جهل إلى الحرب بكل قوة وتراسة ، فكان فيها من الهالكين ، وهذه أمثلة أخرى من معركة بدر ، أمثلة للشرير الذي يدعو إلى الشر ، ويعلي من شعار (يا شر اشتر) ثم اشتد :

١ـ الأسود بن عبد الأسد المخزومي ، رجل شرس سيئ الخلق ، وسيئ الحظ أيضا، عندما رأى حوض الماء إلى جانب المسلمين إذا به من جهالة يقول : (أعاهد الله لأشربن من حوضهم ، أو لأهدمنه ، أو لأموتن دونه) شخص واحد يعاهد الله على تحدي جيش بأكمله ، يسعى إلى هلاكه وحتفه وأجله ؟ نعم ، قد فعل الرجل .

لقد وقف في وجهه أسد الله الحمزة ، عم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فماذا حدث : (ضربه حمزة فأطن ـ أطار ـ قدمه بنصف ساقه ، وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره) ألا يهرب بجلده ؟ كلا ، ولكنه واصل المسير ، برغم أن رجله تشخب دما ، تسيل منها الدماء بصوت مسموع ، لقد حبا إلى الحوض حتى وصل إليه ، يريد ـ يا سادة ـ أن يبر بيمينه ، إلا أن أسد الله الحمزة لم يمهله حتى قتله في الحوض .

٢ـ مثال آخر على سعي الجاهلية المغرورين إلى حتفهم ومقتلهم ، خرج عتبة وأخوه وابن الأول للمبارزة خرج من الأنصار لمبارزتهم فتية ، هم عوف ومعوّذ ابنا الحارث ، وعبد الله بن رواحة ، ولكن مبارزي قريش يقولون : (من أنتم ؟) يقول الفتية : (رهط من الأنصار) يقول العتاة من قريش : (مالنا بكم حاجة) ثم ينادي

مناديهم : (يا محمد ، أخرج لنا أكفاءنا من قومنا) أي من قريش ، ويأمر القائد : (قم يا عبيدة بن الحارث ، قم يا حمزة ، قم يا علي[1] .

وتنتهي المعركة وتنجلي عن مقتل القرشيين الثلاثة ، لقد حسم البطلان حمزة وعلي ـ رضي الله عنهما ـ المعركة بسرعة خاطفة ، ولو أن القرشيين رضوا بمبارزة الفتية من الأنصار فربما تغيرت نتيجة المبارزة ، بل المعركة برمتها ، ولكن الظالمين دائما يسعون السعي كله حثيثا حثيثا نحو إهلاك نفوسهم وإزهاقها ، إلى الهلاك يسرعون مهرولين بكل ما أوتوا من قوة واستطاعة .

وأذكر أن تلك المدينة الوادعة مسقط رأسي هي مدينة مسالمة ، أهلها مسالمون ، آخر جرائم القتل التي شهدتها مدينتي كانت منتصف الستينيات ، واحدة منها بسبب الخلاف على ٤ أمتار من الأرض ، والثانية كانت على محطة القطار ، شجار بين طلاب المدارس ، انتهى بمقتل أحدهم .

منذ ما يقرب من نصف قرن لم نسمع بجريمة قتل ، في السنوات الأخيرة فقط جريمة قتل غامضة ، ثم سمعت عن جريمة قتل في بعض أعمال مدينتي ، كان الناس يحكون عنها ، فأحد الناس جعل يمضي في إيذاء جيرانه ، ويتفنن ، ويتفرغ حتى ألجأ جيرانه إلى الانتقام منه بقتله .

أما الجريمة الأخرى التي هزت مدينتي هذا العام ـ ٢٠٠٧ ـ فكانت جريمة قتل اشترك فيها الزوج وزوجته ، والابن والابنة ، ويحكي من عرفوا القاتلين ، الرجل مسالم إلى أبعد حد ، وكذلك زوجته ، كلاهما ضعيف البنية ، منصرف هذا الرجل إلى عمله متفنن فيه ، متحبب إليه ، من ينظر إليه أو إلى زوجه لا يصدق

(١) السابق ٦٢٥/٢ .

أنهما يمكن أن يقتلا .

لكن انظر إلى الطرف الآخر ، ضخم البنية والجثة ، هو وزوجه ، هذه الأخيرة التي أقسمت أن تضرب الزوجة الأخرى أمام الناس ، على مرأى من الناس بحذائها ، وعلى موطن العِفة ، وتطورت الأمور وتطاير الشرر والشرور ، وعزم الآخر على قتله ، وارتمى عليه يريد الإجهاز على غريمه ، لولا أن هذا الأخير تمكن مع زوجته وابنه وابنته من الإفلات من موت محقق ، وكانت الفاجعة التي فجعت بلدنا أنهم قتلوا الشخص الآخر .

ولا نريد أن نخوض في تفاصيل هذي القضية الموجعة المفجئة ، لكن نريد أن نقول إن الشخصية المتفرعنة تسعى بكل قوتها نحو الفواجع والمصائب ، ليس للآخرين فقط ، بل لنفسها هي أخيرا وأولا ، وأولا وأخيرا ، هي هي هيه .

وهكذا يكون الفرد الرديء والمجتمع الرديء ، والشعب الرديء والدولة الرديئة ، والحكومة الرديئة ، والإدارة الرديئة ، دائما تسعى هذي الأصناف كلها نحو الشرور والحروب الطاحنة الضروس ، ولا يهدأ لها بال ، ولا يقر لها قرار حتى تخر صريعة ، لتفتح لنفسها خزي الدنيا وعذاب الآخرة ، ولا حول ، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وانظر في بعض صفحات التاريخ ، قد رأى الإمام الحسن بن علي - رضي الله عنهما - أن يحقن دماء المسلمين ، فتنازل - طوعا - عن الخلافة ، ليهنأ بها من يقاتل في سبيلها ، ولكنهم ما تركوه ، بل قتلوه أيضا ، ثم لم يسمحوا بدفنه إلى جوار جده - صلى الله عليه وسلم - والعجيب أن هؤلاء القاتلين يجدون حتى الآن من يدافع عنهم ، أو من يبيع دينه ، لا بدنياه ، بل بدنيا غيره .

الإمام الحسين - رضي الله عنه - عرضه على الجيش الأموي في كربلاء اختيارا من ثلاثة :

- أن يعود من حيث أتى ، أي إلى مدينة جده .
- أن يذهب إلى ثغر من ثغور المسلمين يحارب فيه .
- أن يذهب إلى يزيد بن معاوية في دمشق .

كل هذا رفض تماما ، وطلب منه إن أراد أن يتجنب القتال أن يذهب إلى عبيد الله بن زياد في الكوفة ليعلن أمامه بيعته ليزيد ، خيروه إذن بين السلة والذلة ، بين الحرب أو الإذلال ، وأمام ابن زياد ، فرفض - رضي الله عنه - الذلة ، واختار القتل على الإذلال .

فكانت كربلاء ، مأساة لم يشهد التاريخ - لا في الإسلام ولا في الجاهلية لها مثيلا - ليس في قتل عترة النبي - صلى الله عليه وسلم - جهارا نهارا والتمثيل بهم ، وسبي الحرائر من بني هاشم ، فكل هؤلاء سيوفون جزاءهم وحقوقهم كاملة يوم الدين ، ولكن في هذا الجيش وكانت عدته ٤ آلاف ، هلكوا جميعا ، ونالوا سوء الأحدوثة إلى يوم الدين ، حيث الجزاء والقصاص بعدل الله سبحانه وتعالى ولو أن هؤلاء الأربعة آلاف كان بهم ذرة من عقل أو حكمة ، أو كان فيهم رجل واحد ، راشد أو رشيد لقبلوا من الإمام الحسين شيئا مما عرض عليهم ، ولنجوا جميعا من خزي الدنيا وسوء العاقبة يوم التغابن ، حيث لا يضيع بين يدي الجبار حق ولا دم مطلقا .

سادس عشر : تحريض ملأ فرعون : ومما يزيد من فرعونة الفرعون تحريض الملأ من حوله ، تحريض الحاشية ضد الآخرين ، في سورة آل عمران[1] :

---

(١) ١٢٧ .

(وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ؟) فهل يسكت الفرعون ؟ كلا : (قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِـي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ).

الآيـة تتحدث عن دور الحاشية والمقربين منا في الإضلال والإبعاد عن الهداية والتحريض ضد الآخرين :

١ـ زوج أبي لهب : أم جميل ، شقيقة أبي سفيان بن حرب ، الذي كان يتزعم الحرب ضد المسلمين حتى فتح مكة (٢٠ رمضان ٨ هـ) وهذا طرف مما فعلته هذه المرأة نقتبسه من تفسير[1] ابن كثير :

أ ـ (وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ[2]) امرأة أبي لهب ، كانت من سادات نساء قريش ، واسمها أروى بنت حرب بن أمية، وكانت عونا لزوجها على كفره وجحوده وعناده، ولذا تكون يوم القيامة عونا عليه في عذابه ، ولهذا قال تعالى : (وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ، فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ[3]) أي تحمل الحطب فتلقيه على زوجها ـ في جهنم ـ لتزيد النيران التي تحرقه .

ب ـ كانت تضع الشك في طريق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما كانت تعيره بالفقر ، فعيرت بـ (حمالة الحطب) لأنها كانت تحتطب .

جـ ـ كان لها قلادة فاخرة فقالت : (لأنفقنها في عداوة محمد) فأعقبها الله حبلا من مسد النار ، والمسد (الليف) .

د ـ أقبلت هذه المرأة ـ يوما ـ ولها ولولة ، وفي يدها فهر (حجر كبير يملأ كف اليد)

(١) ٥٦٢/٤ ، ٥٦٣ .
(٢) ٤ المسد .
(٣) ٤ ، ٥ المسد .

وهي تنشد :

مذمما أبينا ودينه قلَيْنا وأمره عصَيْنا

رسول الله جالس في المسجد الحرام بمكة ، ومعه أبو بكر الذي قال حين رآها : (يا رسول الله قد أقبلت، وأنا أخاف عليك أن تراك) قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : (إنها لن تراني) وقرأ قرآنا اعتصم به ، كما قال تعالى : (وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً[1]) فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ، ولم تر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت : (يا أبا بكر ، إني أخبرت أن صاحبك هجاني، قال : لا ورب هذا البيت ما هجاك) فولت وهي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيدها .

انظر أيها القارئ الكريم كيف عانى سيد الخلق ـ صلى الله عليه وسلم ـ من النساء المشركات ، أو من زوجات المشركين ، انظر إلى هذه الحمقاء تأخذ هذا الحجر الكبير تريد أن تقتل أشرف الخلائق وأين ؟ في البيت الحرام ، وأمام الكعبة المشرفة .

هـ ـ بل وصل الأمر في وقاحتها أن شتمت محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهي تطوف حول الكعبة، لقد عثرت في مرطها[2] ـ جلبابها ـ وهي تطوف بالبيت ، فقالت: تعس مذمم .

٢ـ حيي بن أخطب : كان له دور كبير في التحريض على نبي الله ، محمد صلى الله عليه وسلم ـ وقد وصل هذا التحريض إلى ذروته في غزوة الأحزاب، ليس مع قريش وغطفان فقط ، بل مع زعيم بني قريظة (كعب بن أسد) صاحب عقد بني قريظة

(١) ٤٥ الإسراء .
(٢) كساء من صوف أو خز (حرير فخم) .

وعهدهم، كان وداع الرسول الكرم ـ صلى الله عليه وسلم ـ على قومه ، وعاقده على ذلك وعاهده .

كان كعب بن أسد رجلا عاقلا فاهما ، لما سمع بمقدم حيي أغلق دونه باب حصنه ، وأبى أن يكلمه ، لكنه في النهاية تمكن بمراوغته ومناورته من إقناع كعب بنقض العهد ، ثم كان ما كان من مقتل ابن أخطب مع مقاتلة بني قريظة .

٣ـ آخر مثال نذكره لدور الحاشية في إفساد الأمر على الجالس على الكرسي ، هو (ركسلانة) سبية روسية زرعت في البلاط العثماني ، لقد تمكنت من إقناع السلطان سليمان القانوني (١٤٩٤ ـ ١٥٦٦) بما يلي :

أ ـ توجيه الحملات العسكرية نحو أوربة القوية ، وخاصة مع امبراطورية النمسا ، وإبعاد الخطر العسكري العثماني عن روسيا ، حيث كان السلطان يستطيع الاستيلاء عليها في ليلة واحدة ، أو في وقت وجيز ، وبسهولة شديدة .

ب ـ إقناع السلطان بعزل الصدر الأعظم إبراهيم باشا ، وكان له دور بارز في الانتصارات الحربية التي أحرزها السلطان ، ثم اغتيل ٥ مارس ١٥٣٦ ، ثم اختارت أحد المقربين منها ، رستم باشا ليخلف إبراهيم باشا ، ليساعدها في تعيين ابنها وليا للعهد .

جـ ـ ولكي يخلو الطريق لابنها فقد سعت لدى السلطان لقتل ابنه (مصطفى) وتم لها هذا في ٢١ سبتمبر ١٥٥٣ ، ثم قامت الحروب بين ابنها (سليم) وبين الابن الثاني الأصغر حتى قتل الأخير ١٥٦١ .

هذا جزء مما فعلته هذه الركسلانة في بلاط سليمان ، ويمكن للقارئ إن رام

مزيدا من التفاصيل أن يرجع إلى كتابي (العربية في بلدان غير عربية[1]) .

سابع عشر : اتهام موسى بالسحر والجنون : من الصفات التي حكاها القرآن الكريم عن فرعون ومن معه أنهم اتهموا نبي الله موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بتهم باطلة على رأسها السحر والجنون ، تماما تماما كما فعل القرشيون حين رموا محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذات التهم ، فقد حكى القرآن عن فرعون:
١ ـ (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ) تسع آيات ـ يا فرعون ـ ولم تؤمن !! فكم من الآيات تريد يا متفرعن كي تؤمن ؟ يقول المولى :(فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءهُمْ) أي نبي الله موسى (فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً!!) .

فهل المقصود بالآيات الدلالات والحجج الواضحات حقيقة عددها ، لا تزيد عن تسع ولا تنقص ، أم المقصود الكثرة والتعدد ، دون عدد بعينه ؟ الراجح المرجح أنهن تسع آيات ، لا يزدن ، ولا ينقصن ، لكن ماتيك ـ تلك ـ التسع على وجه التحديد، وما أسماؤهن ؟

قيل : يد موسى وعصاه والبحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس ..

الطمس آخر الآيات التسع التي أوتيها موسى ـ عليه السلام ـ حين طمس على مال فرعون بدعوته ، فصارت حجارة[2] ، قال تعالى على لسان موسى ، عليه الصلاة والسلام : (رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى

(١) ص ١٥٧ : ١٦٦ .
(٢) لسان العرب ٤٣٣/٧ .

يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ[1] .

جاء في تفسير ابن كثير[2] : (ربنا اطمس على أموالهم) أي أهلكها ، وقيل : جعلها الله حجارة منقوشة كهيئة ما كانت .. وقرأ محمد بن كعب القرظي سورة يونس على عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنهم ـ حتى بلغ : (ربنا اطمس على أموالهم ...) فقال عمر : يا أبا الحمزة ، أي شيء الطمس ؟ قال : عادت أموالهم كلها حجارة .

على أي الأحوال ليست هذي الآية الواحدة الوحيدة التي تحكي عن فرعون يتهم نبي الله بالسحر ، بل هناك آيات عديدات أخر :

وفي تيك ـ الآية ـ يضيف احتمالا آخر مع السحر ، ألا وهو الجنون : (وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ [3] بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ) والسلطان المبين هنا هو الحجج والآيات الظاهرة الواضحة ، ومنها اليد والعصا[4] التي كان يدخلها في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء ، والعصا التي تحولت إلى حية ضخمة احتنكت ـ التهمت ـ كل ما سحروه من حيات .

تهمة السحر ، أو تهمة الجنون ، كلتاهما ما رمي به نبي الله موسى فقط ، أو الخاتم محمد فقط ؟ بل رمي بهما كل الرسل قبلهما ، هذا ما جاء به الكتاب الكريم : (فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ

---

(١) ٨٨ يونس .
(٢) ٤٢٩/٢ .
(٣) ٣٨ ، ٣٩ الذاريات .
(٤) تفسير النسفي ١٨٨/٤ .

أتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ[1]) .

. يتساءل القرآن الكريم عن تهمة السحر أو الجنون ، هل تواصلت الأقوام - على اختلاف أزمانهم - بهذا ؟ كلا كلا ، الحق والصدق والصح والصحيح والحق والحقيق ، أنهم جميعا، هم أجمعون أكتعون أبصعون ، يجمعهم قاسم مشترك واحد ، إنهم قوم طاغون ، صفة الطغيان[2] ، والطغيان وحده هو الذي دفعهم إلى وصف رسل الله جميعا بالسحر أو الجنون .

٢- ولا يتهم موسى - عليه الصلاة والسلام - بالسحر فقط ، بل يصمه المستكبرون بالسحر ، وبالكذب أيضا : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ[3]).

انظر كيف يصف هؤلاء الظالمون الطاغون نبي الله - ليس بأنه كاذب فقط - أي فيما جاء به عن رب العزة من الرسالة بل يصفونه بصيغة المبالغة (كذاب) كثير الكذب ، مبالغ فيه .

وهذا ما حدث من مشركي مكة أيضا ، نفس التهمتين ، السحر والمبالغة في الكذب ، مع أنهم لقبوه قبل الرسالة بالصادق الأمين ، ففي سورة ص[4] ، وهي سورة مكية : (وَعَجِبُوا أن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ!!) أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون .

---

(١) ٥٠ : ٥٣ الذاريات .
(٢) تفسير النسفي ١٨٨/٤ .
(٣) ٢٤ غافر .
(٤) آية ٤ .

وقبل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان نبي الله صالح ، صاحب الناقة ، لقد اتهم أيضا من قومه ثمود بأنه كذاب ، فقط ؟ كلا ، بل أضيفت صفة أخرى هي (الأشر) في سورة القمر[1] : (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ فَقَالُوا أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ) .

٣ـ وبرغم اتهام نبي الله موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالسحر ، إلا أن فرعون يستنفر السحر والسحرة ضد كليم ربه ، بل يغدق عليهم ، وبسخاء شديد :

أ ـ (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ[2]) .

ب ـ (وَجَاء السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُواْ إِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ، قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ[3]) .

أضاف إلى الأجر مكافأة أخرى لهؤلاء السحرة ، سيكونون مقربين من الفرعون .

جـ ـ وفي الشعراء[4] : (فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ، قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) .

وهذا ما أعطاهم دفعة قوية وحافزا ودافعية كبرى (فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ[5]).

---

(١) ٢٣ : ٢٧ .
(٢) ٧٩ يونس .
(٣) ١١٣ ، ١١٤ الأعراف .
(٤) ٤١ ، ٤٢ .
(٥) ٤٤ الشعراء .

بقيت صفتان اثنتان فقط مما وصف به الفرعون في التنزيل الحكيم ، هما أن الفرعون أضل قومه ، وما هدى، وبرغم هذا ترى الشيطان لا يخجل أن يغط الناس ، وهو ما نجده فيما يلي :

ثامن عشر : إضلال الناس : جاء في القرآن الكريم : (وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا[1] هَدَى) وأرى أن هذي الآية على قصرها واختصارها تلخص قصة فرعون وكل طاغية في هذي الأرض ، في أي زمان أو مكان ، إضلال الناس ، وإبعادهم عن الهداية ، نفس الشيء الذي صنعه كل المناوئين المعادين لرسل الله ولهداة الناس إلى الخير ، أبو جهل وأبو لهب وعقبة بن أبي معيط وغيرهم من صناديد الكفر في مكة ، وفي غيرها ، من قبلهم ، ومن جاء بعدهم إلى يوم الدين .

تاسع عشر : الشيطان يعظ : وبرغم كل ما يقوم به الطغاة والمتفرعنون في إضلال وإبعاد الناس عن الهداية إلا أنهم يلبسون مسوح القسيسين والواعظين ، فهذا فرعون لم يكتف بكل ما سبق وفعل حتى وصل به التطاول إلى ادعاء الألوهية ، ها هو ذي ينبري خطيبا موعظا قومه :

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ [2]) لماذا يا فرعون تريد قتل موسى ؟ : (إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ) .

ولكي نفهم هذا الوعظ الشيطاني الفرعوني ، نرجع إلى سياق الآية السابق من سورة غافر ، وهي مكية ، وهذا معناه أن الكلام موجه إلى مشركي مكة الذين وصل طغيان القوم إلى أن امرأة ملعونة مثل أم جميل بنت حرب التي ذهبت لقتل

---

(١) ٧٩ طه .
(٢) ٢٦ غافر .

محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بحجر تحمله بيدها ، وأمام الكعبة المشرفة ، حتى هذه القميئة حمالة الحطب لم يسلم منها سيد الخلق.

إن الآيات موجهة إلى هؤلاء المستكبرين في مكة ليتفطنوا بما حدث لفرعون وغيره ، ممن سبق أو لحق ، تقول الآيات : (أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ[1]) .

ثم تبدأ الآيات بالحديث عن قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع فرعون وهامان وقارون : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ...) ربما كان يجد معارضة من بعض عقلاء القوم حذر العواقب من قتل موسى (وَلْيَدْعُ رَبَّهُ) ردا على هؤلاء القوم الذين ربما يخافون انتقام رب موسى .

جاء في ظلال القرآن[2] : ولعل من الطريف أن نقف أمام حجة فرعون في قتل موسى (إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ) فهل هناك أطرف من أن يقول هذا فرعونُ عن رسول الله ، موسى ـ عليه السلام ـ أليست هي بعينها كلمة كل طاغية فاسد مفسد عن كل من يدعو إلى الصلاح والهدى ، هي بنفسها كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الواضح ، الصريح والصراح ، بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر في وجه الإيمان الهادي .

منطق واحد يتكرر كلما التقى حق وباطل ، إيمان وكفر ، صلاح وطغيان

(١) ٢١ ، ٢٢ غافر .
(٢) ١٧٨/٧ .

على توالي الزمان واختلاف المكان ، قصة قديمة مكرورة تعرض وتظهر دائما باستمرار ، وكما قال فرعون عن نبي الله موسى ، قال صناديد مكة وفراعينها عن النبي الأكرم - صلى الله عليه وسلم - وهذا طرف منه :

أ - كان العاص بن وائل السهمي إذا ذكر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : دعوه فإنما هو رجل أبتر ، لا عقب له ، لو مات لانقطع ذكره ، واسترحتم منه[1] ، فأنزل الله تعالى : (إنَّا أعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ، إنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأبْتَر) .

الكوثر هو الخير العميم ، أو هو نهر أو حوض في الجنة ، جاء في تفسير النيسابوري (والقول الثالث أن الكوثر أولاده لأن هذه السورة نزلت ردا على من زعم أنه الأبتر ، والمعنى أنه يعطيه بفاطمة نسلا يبقون على مر الزمان ، فانظر كم قتل من أهل البيت[2] . ثم العالم مملوء منهم ، ولم يبق من بني أمية أحد يعبأ به !؟ ومن غيرهم شانئي محمد - صلى الله عليه وسلم - بل العلماء الأكابر من آل البيت ، من نسل فاطمة - رضي الله عنها وأرضاها - لا حد لهم ، ولا حصر لهم ، منهم (منهم الباقر والصادق والكاظم والرضي والتقي والنقي وغيرهم) .

الشيء بالشيء يحكى ويذكر ، فقد نقلت شبكة الأخبار العربية أنه اكتشف في حرة خيبر شمال المدينة المنورة أكبر كهف عثر عليه حتى الآن ، هذا الكهف قد يكون طبيعيا أو قد يكون منحوتا في فترة ما من التاريخ ، خاصة أن هذه المنطقة قريبة من مدائن قوم صالح (الحجر) التي تقع إلى الشمال من خيبر ، وقوم صالح (ثمود) الذين قال لهم نبيهم : (... وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً فارِهِينَ)[3] قال ابن

(١) سيرة بن هشام ٣٩٣/٢ .
(٢) ١٧٥/٣٠ .
(٣) ١٤٩ ، الشعراء.

كثير[1]: (كانوا ينحتون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشر وبطرا وعبثا ، من غير حاجة إلى سكناها ، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها كما هو مشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم) .

وقد عثر في هذا الكهف المكتشف على جماجم بشرية وعظام حيوانات مفترسة وكتابات يعود تاريخها لآلاف السنين ، ما يشير إلى أنه ربما كان سجنا مخفيا للدولة الأموية ـ أو العباسية ـ حيث كانت المدينة المنورة ـ في فترة ما ـ من بؤر الثورة ، خاصة في العهد الأموي ، ومن ثم كانت وقعة الحرة ، وما أدراك ما الحرة (٦٣هـ) حيث ثار أهل المدينة ضد يزيد بن معاوية، لقلة دينه ـ كما ذكر مؤرخ الإسلام ـ شمس الدين الذهبي ـ الذي أضاف :

(فجهز ـ أي يزيد ـ لحربهم جيشا عليه مسلم بن عقبة فالتقوا بظاهر المدينة ... وفي سنة أربع وستين ، في أولها هلك مسلم بن عقبة الذي استباح المدينة ، وعمل القبائح ، وما أمهله الله ، والمليح أنه شهد الوقعة وهو مريض على محفة ... وكذلك لم يُمهَل يزيد بن معاوية ، مات بعد بضع وسبعين يوما من الحرة ، في نصف ربيع الآخر ، عن عمر ثمان وثلاثين سنة ... استخلف بعهد من أبيه معاوية فكانت مدته ثلاث سنين وثمانية أشهر[2]) .

وكان من أبرز المآسي التي وقعت في مدته استشهاد ريحانة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسبطه ، أبو عبد الله الحسين بن علي بكربلاء مع أهله وأصحابه ٦١هـ ، في يوم عاشوراء ، فإنا لله ، وإنا إليه راجعون .

---

(١) ٣٤٣/٣ .
(٢) الذهبي ـ العصر ٤٧/١ ، ٥٠ ، ٥١ .

على أية حال فإنا نأمل - نحن المتخصصين في اللغة العربية - أن يلقى هذا الاكتشاف الضوء على تاريخ الكتابة العربية بتحليل الكتابات التي قيل : إن تاريخها يعود لآلاف السنين .

ب - بل اخترعوا له الأسماء والألقاب التي تسيء وتشين ، مثل (مذمم) بدلا من (محمد وأحمد) و(القاطع) أي للرحم - كما سيأتي تفصيله - ولكن مرة أخرى مع حمالة الحطب التي تجرأت على سيد الخلق ، حتى أمام الكعبة المشرفة :

عندما سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن ، أتت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو جالس عند الكعبة ، ومعه أبو بكر الصديق ، وفي يدها فِهْر - حجر كبير يملأ الكف ، يملأ راحة اليد مع الأصابع الخمسة - فلما وقفت عليهما ، قالت يا أبا بكر: أين صاحبك؟ فلقد بلغني أنه يهجوني - والله - لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه - فمه - فلما انصرفت قال أبو بكر: يا رسول الله، أما تراها رأتك ؟ قال : لقد اخذ الله بصرها عني .

وكانت تنشد

مذممٌ أبينا

ودينه قلينا

وأمره عصينا

وكان رسول الله يفرح لأن المشركين يسبون (مذمما) ليس محمدا ، يقول : (ألا تعجبون ، كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم ، يشتمون مذمما ، ويلعنون مذمما، وأنا محمدا[1]) . ومع ما له - صلى الله عليه وسلم - من عظيم الشرف والقدر

(١) الصلابي ، د. علي : السيرة النبوية ١/١٧٧ .

فقد لقي من سفهاء قريش أذى كثيرا ، إذا مرّ على مجالسهم بمكة استهزءا به ، وقالوا ساخرين : هذا ابن أبي[1] كبشة ، يكلم من السماء ، يمر به أحدهم فيقول ساخرا : أما كُلّمت اليوم من السماء[2] .

جـ - وهذا طرف آخر مما قال مشركو قريش لابسين ثياب الواعظين الشفقاء على قومهم :

اجتمع أشراف مكة في حجر إسماعيل أمام الكعبة المشرفة فذكروا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : (ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط ، سفّه أحلامنا ، وشتم آبائنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسبّ آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم[3]) شيء من وعظ الواعظين الباكين على جناية محمد عليهم وعلى قومهم !! أرأيت أعجب من هذا عزيزي القارئ ؟ .

وفي سياق آخر ، يقولون : (وإنا - والله - ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء وعبت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فما بقي أمر قبيح إلا جئته فيما بيننا وبينك[4]).

انظر أخا الدين والخلق ، هل ترى براعة في وعظ الشياطين أمهر من هذا ؟ قلب للحقائق والموازين ، لا نظير له ، وانظر إلى نفسك حين يتهمك شياطين الإنس بما أنت منه براء برئ هل يصل نبلك وشرفك وطهرك مثلما وصل سيد الخلق - صلى الله عليه وسلم - وهل ظلمك مخالطوك من شياطين الإنس وخلطائه كما ظلم سيد

---

(١) رجل كان يعبد كوكب الشعرى ، ومن ثم قال الله : (وأنه هو رب الشعرى) ٤٩ النجم ، حيث كان بعض العرب يعبدون الكواكب ، ويعتبرون أنفسهم أرقى ممن يعبدون الأصنام .
(٢) السابق .
(٣) سيرة ابن هشام ٢/٢٨٩ .
(٤) السابق ٢/٢٩٥ .

الأولين والآخرين ؟ اللهم لا ، اللهم لا .

نعود إلى شياطين الإنس الذين لا يفتأون يلبسون مسوح الراهبين الواعظين يحكي أحد الأصدقاء عن زميل لهم في العمل يسمونه أو يشبهونه بـ (شيطان دار الندوة) الذي أشار على الزعامة القرشية بأن يختاروا من كل قبيلة شابا جلدا قويا ، يضربون محمدا ضربة رجل واحد ، فيُفرق دمه في القبائل ، فلا يستطيع بنو هاشم أن يثأروا من هذي القبائل كلها .

يقول صديقي هذا كلما قرأت هذه الآيات قفز إلى ذهني ما قام وما يقوم به هذا الرجل في عمله من الإفساد ، وصب الزيت على المشكلات ، وإفساد ذات البين في مجال عمله ، يذكر دائما بقول الله :

١ـ (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ[1]) .

٢ـ (ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ[2]) .

٣ـ وفي آخر الكهف : (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ، أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً[3]) .

ومع هذا وذاك وذياك فإن شيطان دار الندوة هذا لا يكف دائما عن الحديث عن القيم والمبادئ والأخلاق والمواقف الشجاعة التي يقفها باستمرار ، كما يُحدث

---

(١) ٤٥ الزمر .
(٢) ١٢ غافر .
(٣) الآيات ١٠٣ : ١٠٦ .

دائما عن حسب ونسب سامق سموق السماوات والأرضين ، وثراء عريض ، في حين تجده أو قل لا تجده إلا متطفلا على زملائه ، ولو في قروش قليلات من الفقراء أو الفقيرات .

هذا نموذج واحد من نماذج شياطين العصر الذين يسعون ليل نهار ، صباح مساء ، ما جري الدم في العروق ، يسعون السعي الحثيث السعي كله لإفساد الحياة والبلاد والعباد ، كلما انطفأت نار للحرب والمصائب أوقدوها مرة أخرى ، يهلكون الحرث والنسل ، يبيدون البشر والشجر والمدر ، ومع هذا فهم على دوام في لباس المصلحين المتواعظين الباكين على خير البشر والبشرية .

فهم دعاة الإصلاح والديمقراطية والتوافق والرخاء والعيش المشترك والرفاهية ، والمنافحون المكافحون المجاحشون بكل قوة عن حقوق الإنسان ، وهم الساهرون بالليل وبالنهار على إيجاد فرص عمل جديدة للشباب ، وفي كل صراع ، وفي كل مشكلة هم حمائم السلم والسلام الذين لا يغمض لهم جفن قبل إحلال السلام وعمومه في الأرض وفي السماء .

وهم في حقيقة الأمر ، وحقه وحقيقه ، وصحه وصحيحه ألد أعداء النوع البشري ، فهم وراء كل مصائب الناس وكوارثهم ، ومآسيهم وبلاياهم ، شعارهم المطبق غير المعلن : (أعددت للشعوب سما ناقعا) للشعوب كل الشعوب، أعدوا لهم، ليس السم الناقع فقط ، بل أشد السموم فتكا ونقعا (فسقيت آخرهم بكأس الأول[1]) كأس واحدة سقيت به كل الشعوب ، هو القتل والإبادة والتشريد والإفقار وإهلاك الحرث والنسل والحرب الضروس على العباد ، كل العباد .

(١) معذرة للشاعر جرير في اقتباس بيته :
أعددت للشعراء سما ناقعا فسقيت آخرهم بكأس الأول

هذا النمط من الشخصية ، أو هذا النمط من الشياطين ، قال عنه رب العزة : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ ، وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ[1]) .

وفي بدايات سورة البقرة : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ، يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ، أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ[2] ...) .

وفي سياق مفارقات الحياة وأعاجيبها التي فاقت حدود التصور البشري والتخيل ما ذكره وزير خارجية إسرائيل عندما دخلت إسرائيل الحاضرة اللبنانية بيروت فأعلن بأن دولته : (لا تتدخل في الشئون الداخلية للبنان) .

الأمثلة أكثر من أن تحصر في عالم اليوم ، فزارعو الديمقراطية في بلاد الرافدين منذ الاحتلال - مارس ٢٠٠٣ - وهم يئنون ، ويتوجعون ، ويتفجعون من الجارين ، عن اليمين ، وعن الشمال قعيد ، جيران الشرق ، وجيران الغرب يتدخلون في شئون العراق المسكين ، حاقدون حانقون غانظون ، لماذا يا سادة ؟ بسبب ما ينعم به الشعب العراقي من ديمقراطية وأمن وسلم وطمأنينة، في حين يحرم الشعبان في إيران وسوريا من نسائم الديمقراطية والرخاء .

---

(١) ٢٠٤ : ٢٠٦ البقرة .
(٢) ٨ : ١٢ البقرة .

لهفي على الغرب ، لقد كان في أزمان سلفت ـ في أعين بعض العرب ـ قدوة وقبلة ، مثلا أعلى في الديمقراطية والحرية والرخاء ... إلخ ، والآن اهتزت هذه الصورة ، وانقلبت ، وربما تلاشت ، وإلى الأبد ، أو أبد الآبدين ، وإلى يوم الدين .

والآن نعود إلى فرعون وصفاته التي انتهينا منها لننقل القارئ الكريم إلى استكمال نقاط الدراسة ، لنتحدث عن مؤمن آل فرعون ، ولكن تحت هذا العنوان :

ضـوء فـي عتمـة النفـق

عاش المسلمون في مكة ظروفا قاسية بلغت حد البشاعة والوحشية ، ولكن في ظل هذا النفق المعتم كانت هناك بعض الأضواء ، تماما تماما كما كان في قصة موسى مع فرعون ، رجل مؤمن من آل فرعون ، كان يكتم إيمانه تقية أو خوفا من فرعون وبطشه .

من آل فرعون كان ذا الرجل المؤمن فقط ؟ كلا ، بل كان من بيت فرعون نفسه مؤمنات أيضا ، إنها زوجه ، ونبدأ أولا بمؤمن آل فرعون ، ثم نثني بزوجه :

١ـ مؤمن آل فرعون : جاء الحديث عنه في سور ة غافر[1] عندما قرر فرعون قتل موسى ـ عليه السلام ـ (وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ...) .

إن المسلمين قد يرون الصف المعادي وكأنه شديد التماسك ، متلتب ـ متفق ـ الصفوف مرصوصها ، وهذا غير صحيح ، وهذي كانت رسالة موجهة إلى المسلمين المستضعفين في مكة ، لم يكونوا وحدهم المؤمنين في بكّة ـ مكة ـ بالتأكيد هناك

(١) ٢٨ .

غيرهم ممن يكتمون إسلامهم خوف البطش والتنكيل من صناديد الكفر والمشركين ، أوقد يتحينون الفرص لإعلان إسلامهم .

وأشهر ما يمكن أن يحكى هو إسلام نعيم بن[1] مسعود في غزوة الأحزاب ، لقد ذهب إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلا : (يا رسول الله، إني قد أسلمت ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي ، فمرني بما شئت) فقال المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم : (إنما أنت رجل واحد ، فخذل عنا ما استطعت) .

لقد كان نعيم ـ رضي الله عنه ـ من غطفان جنديا مقاتلا معهم ، ضمن قوات التحالف القرشية القرظية الغطفانية المتحزبة ضد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه ، ولكن الله كتب له الهداية كي يلعب هذا الدور المهم في فك هذا التحالف ، وانهياره في النهاية .

لقد ذهب من فوره إلى بني قريظة ـ الحلقة الأضعف في التحالف ـ وكان صديقا لهم ومخالطا ، دخل عليهم ، استخدم معهم المنطق : (قد عرفتم ودي إياكم ، وخاصة ما بيني وبينكم) قالوا : (صدقت) قال: فإن قريشا ليسوا مثلكم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون أن تتحولوا منه إلى غيره ، وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره فإن أصابوا فرصة انتهزوها، وإلا لحقوا ببلادهم وتركوكم ومحمدا ، فانتقم منكم) .

قالوا : (فما العمل يا نعيم ؟) .

قال : (لا تقاتلوا معهم ، حتى يعطوكم رهائن) .

---

(١) المباركفوري : الرحيق المختوم ، ص ٣٦٨ .

قالوا : (لقد أشرت بالرأي) .

ثم مضى من فوره إلى قريش ثم غطفان قائلا لهما : (تعلمون ودي لكم ، ونصحي لكم ؟) قالوا : (نعم) قال : (إن يهود قد ندموا على ما كان منهم ، من نقض عهد محمد وأصحابه وإنهم قد راسلوه أن يأخذوا منكم رهائن فلا تعطوهم) .

وعندما عزمت غطفان وقريش الهجوم بعثوا إلى بني قريظة : (إنا لسنا بأرض مقام ... فانهضوا حتى نناجز محمدا) فقال اليهود : (صدقكم ـ والله ـ نعيم) فتخاذل الفريقان ، ودبت الفرقة بين صفوفهم ، وانهار التحالف الثلاثي على رءوس أصحابه .

نعود مرة أخرى إلى مؤمن آل فرعون والحوار المسهب مع فرعون وملئه ، لقد وصف هذا المنافح عن الحق ، بما يلي :

ـ رجل .

ـ مؤمن .

ـ من آل فرعون .

ـ يكتم إيمانه .

حجة هذا الرجل أو حججه :

ـ تقتلون رجلا لأنه يقول : ربي الله ، أي أنه لا يؤذيهم في شيء ، ولا يتعدى عليهم في شيء .

ـ ليس هذا فقط ، بل (وقد جاءكم بالبينات من ربكم) جاءكم موسى بكل الحجج والبراهين الدالة على صدقه .

ـ ومع هذا فإن يك كاذبا ، فعليه كذبه ، المسئولية عليه ، والعقاب عليه ، والويل له ، لن تضاروا في شيء .

- وإن يـك صادقـا - وهـم الأهـم - يصبـكم بعض الـذي يعدكـم بـه ، ويهددكم بحصوله .

- إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ، فلا تسرفوا وتكثروا من الكذب ، فإن الله لن يهديكم بهديه ، فرب العزة لن يهدي من وقع في الإسراف والتكذيب ولو كان موسى نفسه .

ويلاحظ فيما سبق أن الرجل بدأ - عند الحديث عن موسى - بإن يك كاذبا ، فعليه كذبه ، ثم بعدها : (وإن يك صادقا ...) مقدما فرضية كذبه على صدقه ، برغم يقينه بصدق نبي الله موسى - عليه السلام - إنه نفس الأدب الإلهي :

- (قُل لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ[1]) بدأ بـ (أجرمنا) فنسب الإجرام إلى المؤمنين ، والعمل فقط إلى غير المؤمنين .

- (وإنـا أو إيـاكم لعلـى هدى أو فـي ضـلال مبين) أحدنا علـى هـدى ، أو فـي ضلال ، مع تأكد المؤمنين أنهم على الهدى وأن المعسكر الآخر هو - بكل توكيد - في ضلال مبين .

- وفي النهاية وفي البداية يستسلم الموحدون ويرضخون للحاكم الجبار (قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ[2]) أي يحكم ، لم يؤمر المؤمنون بأن يقولوا : سوف يحكم الله لنا عليكم ، بل فقط سوف يحكم بيننـا ، ولكن بالحق (وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ) الفتاح صيغة فعال من (فتح) بمعنى (حكم) كما سلف ، وقد جاءت صيغة المبالغة من الفعل ، ليس الفاعل (فاتح) بل المبالغة (فتاح) والصيغة الأخرى (عليم) مبالغة من الفعل (علم) ليس اسم الفاعل : (عالم) .

---

(١) ٢٥ سبأ .
(٢) ٢٦ سبأ .

وعليه فإن المؤمنين قد أمروا بأن يوكلوا الخلاف مع معانديهم إلى يوم القيامة والحساب ، حيث الحكم الله ، وهو الفتاح العليم بكل شيء .

ومرة أخرى نعود إلى مؤمن آل فرعون الذي يستمر في محاجة القوم بالمنطق الهادئ الرصين ، والحجة البالغة :

(يا قوم : لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض ، فمن ينصرنا من بأس الله ، إن جاءنا ؟) موسى - عليه السلام - ومن معه إن دخلوا معركة ولم ينتصروا فيها فليس لديهم ما يخسرون ، أما أنتم يا قومي - فلديكم ما تخسرون - (الملك + الغلبة والسلطان) .

وهذا ما يجب أن يحذروه كل ذي جاه أو مال أو منصب ، إنه إن دخل معركة فإن لديه ما يخسره ، لكن الطرف العاطل عما يخسره يكون أكثر جرأة ، حيث ليس لديه ما يفقده .

حجة الرجل هنا ناصعة ناصحة لقومه : (لكم الملك اليوم ظاهرين ، فمن ينصرنا من بأس الله ، إن جاءنا) إنه لا يقول : فمن ينصركم أنتم ، بل (ينصرنا) فهو واحد منهم ، مصيرهم مصيره هو، ومآله مآلهم ، فمن ينصرنا - يا قومي - من عذاب الله ، في الآخرة والأولى - الدنيا - إن جاء هذا العذاب ؟ بالطبع لا أحد .

ولكن فرعون يرد بكل صلف : (مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ[1]) هي دائما الحجة الضعيفة المتهافتة ، أو حجة المتسلطين الطغاة دائما : (إني لا أقول لكم إلا ما أراه صوابا نافعا لكم، هو الصواب والرشد - بلا شك أو جدال - وهل يرى الطغاة إلا الرشد والخير والصواب، وهل يظن أحد أنهم قد يخطئون ، وهل

---

(1) ٢٩ غافر .

يجوز لأحد أن يرى إلى جوار رأيهم رأيا ، وإلا لما كانوا طغاة[1]) .

ولكن الرجل المؤمن لا ييأس من قومه محاولا إنقاذهم ، يستمر في الحوار ، برغم هذا كله : (وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ ، مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ) .

إن المتحزبين ضد الأنبياء ومن معهم مآلهم الهزيمة والقتل والهلاك ، كما حدث مع أنبياء الله (نوح وعاد وثمود) فقط ؟ كلا (والذين من بعدهم) أيضا ، كما حدث للأحزاب الذين تحالفوا ضد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه في غزوة الخندق ، وكما سيحدث مع فرعون ومن معه .

(وما الله يريد ظلما للعباد) إن كل هؤلاء الأحزاب ما ظلمهم ربهم ، بل ترى أن التحالف القرشي الغطفاني القرظي كان تحالفا دفاعيا فقط ، يدافع عن ديار قريش وغطفان وبني قريظة ، ألم يذهب هذا التحالف معدا أكبر جيش عرفته الجزيرة في حياتها ـ عشرة آلاف مقاتل من غطفان وقريش ـ إضافة إلى قوات بني قريظة، والتي قدرت بحوالي سبعمائة مقاتل بكامل عدتهم وأعتدهم .

هؤلاء الأحزاب هل ظلمهم ربهم ؟ كلا ، هم الذين ظلموا أنفسهم خرجوا إلى المسلمين قاصدين استئصالهم والقضاء عليهم نهائيا نهائيا، فالله لا يريد ظلما للعباد.

وبرغم هذي الحجج الظاهرة الباهرة ، فإن فرعون ومن معه لا يقتنعون ، لكن من آمن لا ييأس ، يستمر في استعراض حججه إليهم :

(وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ، يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ

(١) في ظلال القرآن ٧/١٨٠ .

عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ[1]).

يوم التناد أو التنادي ، يوم القيامة ، من الفعل (تنادى) بوزن (تفاعل) والتنادي (التفاعل) يقول العلامة سيد قطب[2] : (في ذلك اليوم ينادي الملائكة الذين يحشرون الناس للوقف ، وينادي أصحاب الأعراف) والأعراف الحاجز بين الجنة والنار، ينادي هؤلاء الأصحاب بين الجنة والنار (على أصحاب الجنة وأصحاب النار، وينادي أصحاب الجنة على أصحاب النار ، فالتنادي واقع في صور شتى ، وتسميته يوم التنادي تلقى عليه ظل التصايح ، وتناوح الأصوات من هنا وهناك ، وتصور يوم زحام وخصام ، وتتفق كذلك مع قول الرجل المؤمن : يوم تولون مدبرين ، ما لكم من الله من عاصم ... وقد يكون ذلك فرارهم عند هول جهنم ، أو محاولتهم الفرار ، ولا عاصم يومئذ ، ولات حين فرار ، وصورة الفزع والفرار هي أولى الصور هنا للمستكبرين المتجبرين في الأرض وأصحاب الجاه والسلطان) .

(وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) لعل فيها إشارة خفية إلى ادعاء فرعون : (مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ) وتلميحا بأن الهدي هدى الله ، وأن من أضله الله ، فلا هادي له ، والله يعلم من حال الناس وحقيقتهم من يستحق الهدى ، ومن يستحق الضلال ، ففي التنزيل : (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ[3]) الذين يفسدون في الأرض ، ولا يصلحون .

وإلى هذا الحد من الحجج والبراهين، أيقتنع فرعون وقومه؟ كلا وألف كلا ، ولكن من آمن لا ييأس ، ويبدو أنه كان على علم بتاريخ بلده وسير المرسلين ، إنه

---

(١) ٣٢ ، ٣٣ غافر .
(٢) الظلال ١٨١/٧ .
(٣) ٨١ يونس .

يذكرهم بيوسف ـ عليه السلام : (وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ، الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ[1]) .

وبالفعل طبع الله على قلب فرعون المتكبر الجبار ، لم يقتنع بكل ما ساق المؤمن من براهين ، لقد ذهب به تكبره والجبروت إلى هذا القرار : (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ، أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلا فِي تَبَابٍ[2]) والتباب الخسران والهلاك .

وبرغم هذا لا ييأس المؤمن ، بل يستمر في حجاجه : (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ، مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ[3]) .

ويعلو الحوار ، وترتفع حدته وحرارته ليصرخ من آمن في وجوه القوم : (وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ، تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ[4]) ويصل المؤمن أي قراره النهائي : (لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ، فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ

---

(١) ٣٤ ، ٣٥ غافر .
(٢) ٣٦ ، ٣٧ غافر .
(٣) ٣٨ : ٤٠ غافر .
(٤) ٤٠ ، ٤١ غافر .

أمْري إلَى اللَّهِ إنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ[1]) ولأن الله بصير بالعباد ، فقد كان جزاؤه (فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ العَذَابِ ، النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أشَدَّ العَذَابِ[2]) .

هذي سمة مهمة من سمات الشخصية المتفرعنة ، مهما قدمت له من أدلة لا يهتم ، ومهما أقنعته وجهدت في إقناعه لا يقتنع ، ولكن لم جهد هذا الرجل كل هذا الجهد مع قومه ، وربما رأى أنهم لا يقتنعون بشيء مما يقول ؟ إنه أدب إلهي ، ففي التنزيل :

١- (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً[3]) .

٢- (وَإذْ قَالَتْ أمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ[4]) .

٣- وفي النهاية إذا ينس الناصح من قوم وجد الهدي الإلهي أمامه : (يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إذَا اهْتَدَيْتُمْ[5]) – (وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخْرَى[6]) - (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ[7])

إذن لم يجد الحوار مع فرعون ، وعندها نجا الذي آمن ، وترك فرعون وجنده إلى مصيرهم المحتوم المشئوم ، وهو ما سوف نفصله لاحقا في موضعه من

---

(١) ٤٣ ، ٤٤ غافر .
(٢) ٤٥ ، ٤٦ غافر .
(٣) ٩ النساء .
(٤) ١٦٤ الأعراف .
(٥) ١٠٥ المائدة .
(٦) ١٨ فاطر .
(٧) ٣٨ المدثر .

الدراسة والآن آن الأوان للحديث عن النقطة التالية :

٢ـ زوج فرعون : قبل الحديث عنها نذكر الآيات التي تحدثت عنها في القرآن الكريم وهذا شرف ما بعده شرف : (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ[1])

منتهى الموضوعية ، أدب إلهي في التعامل مع الآخرين ، على مبدأ : (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) هذه المرأة كانت تحت فرعون ، ومع هذا لم يوجه لها أي لوم ، ولم تعاقب على شيء مما صنعه زوجها أو قومه ، وهذا ما يجب أن نتعلمه عند التعامل مع الآخرين .

إن القرآن عندما ذكر امرأة فرعون ذكرها في سياق ضرب الأمثال ، ضرب الأمثال لمن ؟ للذين آمنوا ، بل ذكر قبل الحديث عن مريم ـ عليها السلام ـ أي أن الله يضرب المثل لمن آمن ، يبدأ بامرأة فرعون ، ويثني بالسيدة مريم ، لماذا ؟ لقد عاشت مريم في أسرة طاهرة وجو طاهر ، وفي رعاية الأنبياء وقرابتهم ، ولذا كان صلاحها وقنوتها أمرا منطقيا .

انظر إلى الآية : (يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً[2]) ولذا كان من الطبيعي أن تكون مريم هكذا ، وصفها ربها : (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ[3]) .

---

(١) ١١ التحريم .
(٢) ٢٨ مريم .
(٣) ١٢ التحريم .

أما امرأة فرعون فقد عاشت في بيئة مختلفة تماما تماما ، قد عاشت في بيت فرعون ، ومن ثم كان ثوابها أعظم ، ومواقفها شديدة الأهمية والتأثير ، وخاصة في حياة موسى ـ عليه السلام ـ من هذي المواقف :

أ ـ لقد هَّم فرعون أن يقتل الطفل الصغير موسى عندما وقع في يده، لكن هذي المرأة أنقذته ، في التنزيل : (وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ[1]) .

ب ـ وفي موقف آخر أنقذت موسى من موت محقق ، كيف[2] ؟ لما دخلت بالطفل على الفرعون ، وضعه في حجره ، فتناول موسى لحية فرعون فمدها على الأرض ، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون : ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه أنه يرثك ويعلوك ويصرعك .

وهنا أرسل فرعون إلى الذباحين ليذبحوا موسى ، لولا تدخل هذه المرأة الصالحة التي قالت : (ما بدا لك من هذا الغلام الذي وهبته لي ؟) فقال : ألا ترين يُزعم أنه يصرعني ويعلوني ؟! قالت : اجعل بيني وبينك أمرا ، يعرف الحق به ، ائت بجمرتين ولؤلؤتين ، فقدمهن إليه ، فإن بطش باللؤلؤتين ، واجتنب الجمرتين ، عرفت أنه يعقل ، وإن تناول الجمرتين ، ولم يرد اللؤلؤتين ، علمت أن أحدا لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين ، وهو يعقل .

فقرب فرعون إلى موسى الجمرتين واللؤلؤتين ، فتناول موسى الجمرتين ، فانتزعهما فرعون منه مخافة أن يحرقا يده ، فقالت المرأة : (ألا ترى) فصرفه الله

(١) ٩ القصص .
(٢) تفسير ابن كثير ١٤٩/٣ .

الدراسة والآن آن الأوان للحديث عن النقطة التالية :

٢ـ زوج فرعون : قبل الحديث عنها نذكر الآيات التي تحدثت عنها في القرآن الكريم وهذا شرف ما بعده شرف : (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ[1])

منتهى الموضوعية ، أدب إلهي في التعامل مع الآخرين ، على مبدأ : (وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) هذه المرأة كانت تحت فرعون ، ومع هذا لم يوجه لها أي لوم ، ولم تعاقب على شيء مما صنعه زوجها أو قومه ، وهذا ما يجب أن نتعلمه عند التعامل مع الآخرين .

إن القرآن عندما ذكر امرأة فرعون ذكرها في سياق ضرب الأمثال ، ضرب الأمثال لمن ؟ للذين آمنوا ، بل ذكر قبل الحديث عن مريم ـ عليها السلام ـ أي أن الله يضرب المثل لمن آمن ، يبدأ بامرأة فرعون ، ويثني بالسيدة مريم ، لماذا ؟ لقد عاشت مريم في أسرة طاهرة وجو طاهر ، وفي رعاية الأنبياء وقرابتهم ، ولذا كان صلاحها وقنوتها أمرا منطقيا .

انظر إلى الآية : (يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً[2]) ولذا كان من الطبيعي أن تكون مريم هكذا ، وصفها ربها : (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ[3]) .

(١) ١١ التحريم .
(٢) ٢٨ مريم .
(٣) ١٢ التحريم .

أما امرأة فرعون فقد عاشت في بيئة مختلفة تماما تماما ، قد عاشت في بيت فرعون ، ومن ثم كان ثوابها أعظم ، ومواقفها شديدة الأهمية والتأثير ، وخاصة في حياة موسى ـ عليه السلام ـ من هذي المواقف :

أ ـ لقد هَمَّ فرعون أن يقتل الطفل الصغير موسى عندما وقع في يده، لكن هذي المرأة أنقذته ، في التنزيل : (وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ[1]) .

ب ـ وفي موقف آخر أنقذت موسى من موت محقق ، كيف[2] ؟ لما دخلت بالطفل على الفرعون ، وضعه في حجره ، فتناول موسى لحية فرعون فمدها على الأرض ، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون : ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه أنه يرثك ويعلوك ويصرعك .

وهنا أرسل فرعون إلى الذباحين ليذبحوا موسى ، لولا تدخل هذه المرأة الصالحة التي قالت : (ما بدا لك من هذا الغلام الذي وهبته لي ؟) فقال : ألا ترين يُزعم أنه يصرعني ويعلوني ؟! قالت : اجعل بيني وبينك أمرا ، يعرف الحق به ، ائت بجمرتين ولؤلؤتين ، فقدمهن إليه ، فإن بطش باللؤلؤتين ، واجتنب الجمرتين ، عرفت أنه يعقل ، وإن تناول الجمرتين ، ولم يرد اللؤلؤتين ، علمت أن أحدا لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين ، وهو يعقل .

فقرب فرعون إلى موسى الجمرتين واللؤلؤتين ، فتناول موسى الجمرتين ، فانتزعهما فرعون منه مخافة أن يحرقا يده ، فقالت المرأة : (ألا ترى) فصرفه الله

---

(١) ٩ القصص .
(٢) تفسير ابن كثير ٣/١٤٩ .

عنه بعدما هم به أن[1] يقتله .

وهكذا لعبت هذه المرأة دور مهما في إنقاذ نبي الله موسى برجاحة عقلها ، وحكمتها في التعامل مع زوجها ، وهي نموذج يحكي للزوجة التي تجيد التفاهم مع زوجها ، مع شدة التباعد والافتراق بين شخصية آسية بنت مزاحم ، وزوجها الفرعون. بل أقول هو نموذج للإنسان يجيد التعامل ليس مع من بتوافق معه ويتفق، بل مع من يختلف عنه ويتناقض ، إن كثيرا من الزوجات ومن الناس ، الناس أيضا من يفشل في التعامل مع أقرب المقربين إليه ، ويجيد فن التنافر والتناقض مع الآخرين ، ولكن هذه المرأة التي حظيت بتكريم ربها ورفع شانها قد تمكنت من إثناء فرعون مرتين عن قتل موسى ، بل لعلها لعبت دورا آخر في إثناء زوجها عن بعض من قراراته المتهورة .

نموذج محترم للتعايش بين شخصيتين متناقضتين تماما، زوجان على طرفي نقيض ، امرأة عاقلة متزنة مؤمنة كاملة الإيمان ، كاملة الشخصية ، وزوج بلغ به التطاول حد ادعاء النبوة ؟ كلا بل إدعاء الألوهية ، ومع هذا كان ثم تعايش بينهما .

إن الزوجة قد ترزق بزوج مثالي يجيبها إلى كل ما تطلب ويحبها من كل قلبه ، ولكن تيك الزوجة لا تستطيع التوافق مع زوجها ، وكذلك الزوج ربما لا يستطيع التعايش مع زوجته المطيعة الموافقة ، بل إن بعض الأبناء ـ من الذكران أو الإناث ـ ربما لا يستطيع أن يتعايش مع الوالدين ، برغم فيض المحبة والمودة من جانبهما نحو الأبناء .

نموذج امرأة فرعون للتعايش مع زوجها نموذج مهم يحسن أن يخضع

---

(١) السابق .

للدراسة وللإفادة منه .

ونعود إلى آية التحريم : (وَضَرَبَ اللَّـهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ ...) نقتبس من تفسير[1] ابن كثير بعض ما قال حول هذي الآية : (وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين أنهم لا تضرهم مخالطة الكافرين، إذا كانوا محتاجين إليهم، كما قال تعالى: لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً[2] ...) .

كان فرعون من أعتى أهل الأرض ، وأكفرهم ، فما ضرَّ امرأته كفر زجها حين أطاعت ربها ؛ ليعلموا أن الله ـ تعالى ـ حكم معدل ، لا يؤاخذ أحدا إلا بذنبه .

لكن هذه المرأة الصابرة المحتسبة قد أوذيت في سبيل وابتليت في دينها ، أو بسبب إيمانها ، فقد روي أنها كانت تعذب في الشمس ، ولكن الله حباها بكرامة من عنده ، فكان فرعون إذا انصرف عنها وهي تعذب بالشمس أظلتها الملائكة بأجنحتها ، كما كانت ترى بيتها في الجنة .

وكانت المعركة يوم الزينة بين سحرة فرعون ، وبين نبي الله موسى تشغل بالها ، ولذا سارعت فور انتهائها متسائلة : (من غلب ؟) غلب موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ وعندها قالت : (آمنت برب موسى وهارون) زوجها المقدام عندما عرف مقالتها أصدر هذا الأمر : (انظروا أعظم صخرة تجدونها ، فإن مضت على قولها ، فألقوها عليها ، وإن رجعت عن قولها فهي امرأتي) فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء ، فأبصرت بيتها في الجنة ، فمضت على قولها ، وانتزعت روحها ، ومع

---

(1) ٣٩٣/٤ .
(2) ٢٨ آل عمران .

هذا فإن خروج الروح من الجسد لم يعفها من تنفيذ القرار الفرعوني ، وألقيت الصخرة على الجسد الطاهر .

ولكن هل كانت امرأة فرعون وحدها التي آمنت؟ كلا كلا ، يحكى ابن كثير[1]: كان إيمان امرأة فرعون من قبل إيمان امرأة خازن فرعون ، معنى هذا أن امرأة أخرى آمنت برب هارون وموسى ، قبل إيمان آسية بنت مزاحم .

امرأة الخازن جلست ـ ذات يوم ـ تمشط بنت فرعون فوقع المشط من يدها فقالت : (تعس من كفر بالله) فقالت بنت فرعون : (ولك رب غير أبي ؟!) قالت : (نعم ، ربي ورب أبيك ، ورب كل شيء ، الله) فلطمتها بنت فرعون ، وضربتها ، وأخبرت أباها .

أرسل فرعون إلى المرأة : (تعبدون ربا غيري ؟!) قالت (نعم ، ربي وربك ورب كل شيء ، الله ، وإياه أعبد) فعذبها فرعون ، وأوتد لها أوتادا ، فشد يديها ورجليها ، وأرسل عليها الحيات ، فقط ؟ فقط ؟ كلا وألف كلا .

ذهب إليها يوما فقال لها : (ما أنت منتهية ؟) قالت : (ربي وربك ، ورب كل شيء ، الله) قال فرعون : (إني ذابح ابنك في فيك) فمك ، قالت : (اقض ما أنت قاض) فنفذ تهديده ، وذبح ابنها في فمها ، ولكن روح ابنها تبشرها : (أبشري يا أمي ، فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا فصبرت) .

ولكن فرعون لم يسكت عنها ، ذهب إليها مرة ثانية فقال لها مثل ما قال ، وذبح ابنها الآخر ، وفي فمها أيضا، فقالت روح ابنها : (اصبري يا أمه ؛ فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا) .

---

(١) السابق .

سمعت امرأة فرعون كلام روح ابنها الأكبر ثم الأصغر ، فآمنت العقيلة الطاهرة ، وقيض الله روح امرأة خازن فرعون ، وكشف الغطاء عن ثوابها ومنزلتها وكرامتها في الجنة لامرأة فرعون ، ازدادت آسية إيمانا وتصديقا .

وعندما اطلع فرعون على إيمان زوجته ، قال للملأ من حوله : (ما تعلمون من آسية بنت مزاحم ؟) فأثنوا عليها ؟ فقال : (إنها تعبد غيري) فاقترحوا عليه أن يقتلها ، فأوتد لها أوتادا ، فشد يديها ورجليها ، فدعت الزوجة الصابرة : (رب ، ابن لي عندك بيتا في الجنة) فوافق أن حضرها فرعون ، فضحكت حين رأت بيتها في الجنة ، فقال فرعون : (ألا تعجبون من جنونها ؟ إنا نعذبها ، وهي تضحك) وهو لا يدري لماذا هي تضحك .

ونختم ما ذكرنا ببعض الأحاديث النبوية :

أ - خط رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أربعة خطوط قائلا : (أتدرون ما هذا ؟) قالوا : (الله ورسوله أعلم) قال : (أفضل أهل الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم) .

ب - ويروي أن هذه العقيلة آسية ستكون زوجا لمحمد - صلى الله عليه وسلم - في الجنة ، عوضا عن زوجها في الدنيا ؟ .

دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على خديجة وهي تجود بنفسها ، فقال : (أكره ما نزل بك يا خديجة ، وقد جعل الله في الكره خيرا كثيرا ، فإذا قدمت على ضراتك فأقرئيهن مني السلام) قالت : (يا رسول الله ، ومن هن ؟) قال : (مريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم ، وحليمة أخت موسى) فماذا قالت هذه الزوجة الكريمة ؟ هل غضبت أو تغير لونها ؟ كلا كلا ، بل هنأته - صلى الله عليه وسلم -

قائلة له : (بالرفاء والبنين) والرفاء الموافقة وحسن التعاشر والمعاشرة .

جـ - وعن أبي موسى الأشعري ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : (كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا أربع : آسية بنت مزاحم ، امرأة فرعون ، ومريم بنت عمرن ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد[1]) .

ومن الطريف أن امرأة فرعون ستكون - في الجنة - جارة لمن ؟ جارة لزوج محمد - صلى الله عليه وسلم - الأولى، والأثيرة الحبيبة إلى قلبه، خديجة بنت خويلد، وجارة أيضا لمريم ابنة عمران ، فعن ابن عمر : (جاء جبريل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فمرت خديجة ، فقال جبريل : إن الله يقرئها السلام ، ويبشرها ببيت في الجنة، من قصب ، بعيد عن اللهب ، لا نصب فيه، ولا صخب ، من لؤلؤة جوفاء، بين بيت مريم بت عمران ، وبيت آسية بنت مزاحم) .

والآن انتهى الحديث عن بنت مزاحم ، وقبلها مؤمن آل فرعون - رضي الله عنهما - وما آل إليه حالهما، في الدنيا ، وما يكون من جزيل الثواب لهما يوم الدين ، آن الأوان لنتحدث عن مصير فرعون ومن معه ، فليأذن لنا القارئ ، إذا شاء .

مصير فرعون ومن ومعه

لقد صدق نبي الله موسى - عليه السلام - في كل ما حذر منه فرعون ومن معه ، انتصر النبي ومن معه ، وهلك فرعون ومن معه ، وهذي بعض الصور التي حكاها القرآن الكريم عن نهاية فرعون ، ومن معه :

أولا- ثبور فرعون: برغم ما قدمه نبي الله موسى - عليه السلام - من الآيات والبينات

(١) الطبرسي : مجمع البيان ٤٠٥/١٠ .

الواضحات فقد كان خلاصة رأي فرعون : (إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً [١]) يرد نبي الله : (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَـؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُوراً [٢]) مثبورا أي : هالكا .

أما تفسير الآية فقد ذكر الطبري [٣] : (قال موسى لفرعون : لقد علمت - يا فرعون - ما أنزل الله هذه الآيات التسع البينات التي أريتكها حجة لي على حقيقة ما أدعوك إليه ، وشاهدة لي على صدق وصحة قولي أني لله رسول ، ما بعثني إليك إلا رب السماوات والأرض لأن ذلك لا يقدر عليه ولا على أمثاله أحد سواه) .

قوله تعالى : (وما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر) كلمة بصائر منصوبة ، حال من (هؤلاء) هذه الحال التي جاءت بعد إلا ، هي أيضا حال مما قبلها [٤] .

نعود مرة أخرى مع تفسير الطبري : (يعني بالبصائر الآيات ، إنهن بصائر لمن استبصر بهن ، وهدي لمن اهتدى بهن ، يعرف بهن من رآهن أن من جاء بهن محق ، وأنهن من عند الله ، لا من عند غيره ، هن معجزات لا يقدر عليهن ، ولا على شيء منهن إلا رب السماوات والأرضين ، وهو جمع بصيرة) .

وكما قال فرعون : (إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً) يرد عليه نبي الله وعلى نفس الوزن ، وبنفس الطريقة (وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُوراً) وقد صح ما قال النبي الكليم ، وهلك فرعون ، كما سيأتي تفصيله .

---

(١) ١٠١ الإسراء .
(٢) ١٠٢ الإسراء .
(٣) جامع البيان في تفسير القرآن ١١٦/١٥ .
(٤) العكبري : إملاء ما من به الرحمن ١٢ .

ثانيا ـ الإنذار المبكر : إن الله ـ جلت قدرتـه ـ لا يأخذ الظالمين فجـأة ، دون إنـذار ولا تحذير ، بل يرسل الرسل مبشرين ومنذرين ، يترك للظالمين الجاحدين المهلة تلو الأخرى ، حتى يثوبوا إلى رشدهم ، وهذا ما حدث مع فرعون ومن معه :

١ـ في سورة الأعراف[١] : (وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) شدد الله عليهم وطأة القدرة ، بعدما ضاعف لهم أسباب النعمة ، فلا الشدة أصلحتهم ، ولا النعمة نبهتهم ، إن مسّهم يسر اعتبروا أنفسهم مستحقين جديرين ، وإن كان ثم عسر تطيروا بموسى ـ عليه السلام ـ ومن معه، بسبب فرط ما لديهم من الغرور والاغترار .

جاء في التنزيل : (فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ[٢]) المتفرد بالإيجاد والمنع والمنح هو الله فقط فقط ، ولكن بصائر هؤلاء القوم مسدودة، وعقولهم عن شهود الحقيقة مصدودة ، وأفهامهم عن إدراك المعاني مردودة[٣] ، هم لا يعلمون ، وقال الزمخشري (طائرهم عند الله) سبب خيرهم وشرهم عند الله ، وهو حكمه ومشيئته ، الله هو الذي يشاء ما يصيبهم من الحسنة أو السيئة ، ليس شؤم أحد ، ولا يمنه[٤] .

ومن المنطقي أن هذا الاتهام لم يوجه لنبي الله موسى ـ عليه السلام ـ بل وجه إلى غيره من النبيين والمرسلين والمصلحين والدعاة إلى الخير بشكل عام :

---

(١) آية ١٣٠ .
(٢) ١٣١ الأعراف .
(٣) القشيري : لطائفي الإشارات ٥٦٠/١ .
(٤) الكشاف ٨٤/٢ .

أ ـ هذا نبي الله صالح ـ عليه السلام ـ صاحب الناقة يتهم بذات التهمة ، ففي سورة النمل[1] :(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ، قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) فماذا قال كفار ثمود ؟ نفس التهمة : (قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ) ذات الإجابة التي قالها موسى ، قالها قبله صالح : (قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ) ثم أردف : (بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ) تختبرون وتمتحنون .

ب ـ وفي سورة يس : (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ ، إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ، قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ ، قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ، وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ) فماذا كان رد القوم الجاحدين ؟ (قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ، قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ[2]) .

ونتساءل : (أتواصوا ؟) كلا كلا : (بل هم قوم طاغون) الطغيان هو الذي يجمعهم ويدفعهم إلى هذا الاتهام وغيره إلى أنبياء الله ، والداعين إلى إصلاح البلاد والعباد .

يقول النسفي[3] : (قالوا طائركم معكم) أي سبب شؤمكم معكم ، وهو الكفر (أئن ذكرتم) اللفظ (أئن) مكون من جزءين ، الأول ، همزة الاستفهام (أ) المفتوحة + (إن) حرف الشرط ، وعليه فالمعنى : هل إذا ذكرتم ، وعظتم ودعيتم إلى الإسلام ؟

(١) الآيات ٤٥ : ٤٧ .
(٢) ١٣ : ١٩ يس .
(٣) تفسير النسفي ٥/٤ .

هذا فعل الشرط (ذكرتم) فأين الجواب ؟ إنه مضمر ، تقديره (تطيرتم) أي : إذا وعظتم تشاءمتم (بل أنتم قوم مسرفون) مجاوزون الحد في العصيان .

بقي أن نعرف أن هذه القرية هي (أنطاكية) التي تقع قريبا من ساحل المتوسط ، وتقع في الوسط تقريبا بين اللاذقية في شمال سورية وبين الإسكندرونة في الأراضي التركية ، وإن كانت كلتا المدينتين في تركيا أو في سورية ، كلتا المدينتين مشاطئتان للبحر المتوسط، في حين تبعد أنطاكية قليلا عن مياه المتوسط ، أو هي غير مساحلة ، ولا مشاطئة للبحر[1].

٢ـ ليس الأخذ بالسنين ، ونقص الثمرات ما قدم لفرعون ومن معه من إنذار مبكر ، ومبكر جدا ، فقط فقط ، بل قدمت إنذارات أخر فكان شعارهم : (وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ).

ولكن الله أعطاهم مهلة أخرى في الدنيا ؛ لعلهم يتذكرون (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ ؟) فقط ؟ كلا : (وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ[2]) .

اختبرهم الله بكل ما سبق ، كيف ؟ يروي أنه لما آمن السحرة ورجع فرعون مغلوبا ، وأبى هو وقومه إلا الإقامة على الكفر ، قال هامان لفرعون : (إن الناس قد آمنوا بموسى ، فانظر من دخل في دينه فاحبسه) فحبس كل من آمن فتابع الله عليهم بالآيات ، وأخذهم بالسنين ونقص من الثمرات ، الجدب والقحط ، ونقص في الثمار والمزروعات .

(١) أبو خليل ، د. شوقي : أطلس القرآن ، انظر ١٣٣- ١٣٥ .
(٢) ١٣٢ – ١٣٣ الأعراف .

ليس هذا فقط ، بل أرسل عليهم الطوفان ، ولعله فيضان عظيم لنهر النيل ، أغرق الدور والأبنية والحقل والزرع والشجر ، تكاثرت هذي المخلوقات الثلاث وتزايدت حتى أفسدت على الناس حياتهم ومعايشهم ، زادت إلى حد الوباء الوبيل ، هذا فقط ؟ كلا ، بل تحول الماء إلى دم .

وعندما ابتلوا بما سبق جأروا إلى نبي الله : (وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ[1]) وعندها كان لابد من الانتقام الإلهي ، بعدما فشلوا في جميع الاختبارات التي عقدت لهم ، ولم يتعظوا بأي شيء ، وهو ما نجده في :

ثانيا ـ نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين : (وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ[2]) أول شيء ذكره القرآن نجاة المؤمنين ، الثاني إهلاك الكافرين الجاحدين (فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ[3]) .

لقد كان حريا بالقوم ، لو كان لهم ذرة أو بقية من عقل ، أو رشد ، لو كان منهم رجل واحد أو وحيد راشد ، أو رشيد أن يتركوا المؤمنين وقد هربوا بجلدهم ، كان حريا بالمطاردين أن يرجعوا عنهم ، وقد تركوا لهم الجمل بما حمل ، تركوا لهم الديار والديّارين ، ولكنه الحمق الذي يودي بصاحبه أولا ، قبل أن يضر الآخرين .

---

(١) ١٣٤ ، ١٣٥ الأعراف .
(٢) ٥٠ البقرة .
(٣) ١٣٦ الأعراف .

هذا فعل الشرط (ذكرتم) فأين الجواب ؟ إنه مضمر ، تقديره (تطيرتم) أي : إذا وعظتم تشاءمتم (بل أنتم قوم مسرفون) مجاوزون الحد في العصيان .

بقي أن نعرف أن هذه القرية هي (أنطاكية) التي تقع قريبا من ساحل المتوسط ، وتقع في الوسط تقريبا بين اللاذقية في شمال سورية وبين الإسكندرونة في الأراضي التركية ، وإن كانت كلتا المدينتين في تركيا أو في سورية ، كلتا المدينتين مشاطئتان للبحر المتوسط، في حين تبعد أنطاكية قليلا عن مياه المتوسط ، أو هي غير مساحلة ، ولا مشاطئة للبحر(1).

٢ـ ليس الأخذ بالسنين ، ونقص الثمرات ما قدم لفرعون ومن معه من إنذار مبكر ، ومبكر جدا ، فقط فقط ، بل قدمت إنذارات أخر فكان شعارهم : (وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ).

ولكن الله أعطاهم مهلة أخرى في الدنيا ؛ لعلهم يتذكرون (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ ؟) فقط ؟ كلا : (وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُوا قَوْماً مُّجْرِمِينَ(2)) .

اختبرهم الله بكل ما سبق ، كيف ؟ يروي أنه لما آمن السحرة ورجع فرعون مغلوبا ، وأبى هو وقومه إلا الإقامة على الكفر ، قال هامان لفرعون : (إن الناس قد آمنوا بموسى ، فانظر من دخل في دينه فاحبسه) فحبس كل من آمن فتابع الله عليهم بالآيات ، وأخذهم بالسنين ونقص من الثمرات ، الجدب والقحط ، ونقص في الثمار والمزروعات .

---

(١) أبو خليل ، د. شوقي : أطلس القرآن ، انظر ١٣٣ـ ١٣٥ .
(٢) ١٣٢ – ١٣٣ الأعراف .

ليس هذا فقط ، بل أرسل عليهم الطوفان ، ولعله فيضان عظيم لنهر النيل ، أغرق الدور والأبنية والحقل والزرع والشجر ، تكاثرت هذي المخلوقات الثلاث وتزايدت حتى أفسدت على الناس حياتهم ومعايشهم ، زادت إلى حد الوباء الوبيل ، هذا فقط ؟ كلا ، بل تحول الماء إلى دم .

وعندما ابتلوا بما سبق جأروا إلى نبي الله : (وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ[1]) وعندها كان لابد من الانتقام الإلهي ، بعدما فشلوا في جميع الاختبارات التي عقدت لهم ، ولم يتعظوا بأي شيء ، وهو ما نجده في :

ثانيا ـ نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين : (وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ[2]) أول شيء ذكره القرآن نجاة المؤمنين ، الثاني إهلاك الكافرين الجاحدين (فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ[3]) .

لقد كان حريا بالقوم ، لو كان لهم ذرة أو بقية من عقل ، أو رشد ، لو كان منهم رجل واحد أو وحيد راشد ، أو رشيد أن يتركوا المؤمنين وقد هربوا بجلدهم ، كان حريا بالمطاردين أن يرجعوا عنهم ، وقد تركوا لهم الجمل بما حمل ، تركوا لهم الديار والديّارين ، ولكنه الحمق الذي يودي بصاحبه أولا ، قبل أن يضر الآخرين .

---

(١) ١٣٤ ، ١٣٥ الأعراف .
(٢) ٥٠ البقرة .
(٣) ١٣٦ الأعراف .

وكل هذا كان وعظا لأهل مكة حتى يرجعوا عن عنادهم وجحودهم ، وكان هذا أيضا تثبيتا لقلوب المؤمنين الذين تحملوا شتى صنوف الأذى والاضطهاد، النجاة كانت لموسى ، ومن آمن به وتابعه ، والهلاك كان لفرعون ومن شايعه .

ثالثا ـ التمكين للمؤمنين : وقد جاء هذا في سورتي القصص والأعراف :

١ـ (وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ[1]) .

٢ـ إن الآيات الأولى التي حكت بداية قصة فرعون مع موسى ذكرت بأن الهدف من هذا كله، الهدف من وراء حكي قصة موسى وفرعون كان بشارة التمكين في الأرض لمؤمني مكة ، ليكونوا الوارثين لها ، كما كان مؤمنوا موسى ، وهو الذي حدث مع محمد وأصحابه ففي مفتتح القصص : (طسم ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ، نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ، إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) .

الآيات لخصت القصة من أولها إلى آخرها ، ثم تذكر الآيات الهدف من وراء حكي ما كان من نبأ موسى وفرعون ، لقد كان الهدف : (وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ، وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ) .

نعم لقد رأى فرعون ووزيره هامان ما كانوا منه يحذرون ، لقد غرقوا

(١) ١٣٧ الأعراف .

جميعا عند مطاردتهم موسى ، ومن معه ، ثم كتب الله التمكين لنبي الله ومن آمن معه ، لقد كتب الله عليهم العذاب والغرق في الحياة الدنيا إضافة إلى ما ينتظرهم في الآخرة .

رابعا ـ عذاب الآخرة : حكت الآيات من سورة غافر قصة مؤمن آل فرعون الذي حاول إنقاذ قومه من عذاب محقق في الآخرة والأولى ، ولكنهم صموا آذانهم عن كل حججه وبراهينه ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين .

ولكن ماذا عن الرجل المؤمن وسط هؤلاء الظالمين ، وما جزاؤه عند رب العالمين ؟ وكان آخر ما قاله ناصحا لهم : (فستذكرون ما أقول ، وأفوض أمري إلى الله ، إن الله بصير بالعباد) .

لقد كان الجزاء : (فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ؟) ما هو يا رب ؟ (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ[1]) .

وتنتقل السورة إلى الكافرين في نار جهنم ، تحكي عنهم : (وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّار فَيَقُولُ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النَّار ، قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَاد[2]) .

ويلتفت الكافرون إلى خزنة جهنم ضارعين : (ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ الْعَذَابِ ، قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلَالٍ) .

---

(١) ٤٦ غافر .
(٢) ٤٧ ، ٤٨ غافر .

وتستمر الآيات ، وإن يُلمِح فيها مواساة لسيد الأولين والآخرين ومن آمن معه في مكة : (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا) فقط ؟ كلا : (وَالَّذِينَ آمَنُوا) معهم ينصرون أيضا ، في الدنيا فقط ؟ كلا : (فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ، يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ، وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ، هُدًى وَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ[1]) .

ثم تصل القصة إلى الغرض منها، والهدف، وهو تثبيت قلب سيد المرسلين : (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ) لقد كان وعد الله لموسى حقا ، ووعد الله لك أيضا هو حق حقيق ، وصح صحيح .

ويعلل القرآن سبب عناد كفار قريش ، إنه (الكبر) يا محمد : (إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ[2]) .

والآن قلنا ما عندنا حول صفات فرعون ، ثم انتقلنا إلى مؤمن آل فرعون ومنه إلى عاقبة فرعون ومن معه ، والآن نختم هنا بالحديث عن دور هارون - عليه السلام - في مؤازرة أخيه موسى ، عليهما السلام.

---

(١) ٥١ : ٥٤ غافر .
(٢) ٥٦ غافر .

دور هارون في مؤازرة أخيه عليهما السلام

إذا كانت هذه الدراسة من ألفها إلى يائها ، ومن يائها إلى ألفها تعتمد على القرآن الكريم ، فإنه كما عددنا صفات فرعون من خلال الكتاب الكريم ، صفات الشخصية المتفرعنة كما جاء في التنزيل الحكيم ، فإنا نفعل الشيء ذاته في محاولة التعرف على دور هارون - عليه السلام - حيث نبدأ من نقطة معرفة الآيات والمواضع التي جاء فيها اسم هارون ، فقول :

أولا - وقعت لفظة هارون في القرآن الكريم عشرين مرة ، عدد ليس بالقليل ، وليس بالكثير جدا ، أو العديد ، في العشرين مرة جاءت اثنتان فقط في سورة مدنية ، هما : (البقرة والنساء) الأولى آياتها (٢٨٦آية) والثانية آياتها (١٧٦آية) أي تأتي في المرحلة الثالثة من ناحية الطول بعد البقرة ، ثم النساء ، آياتها (٢٠٠آية) .

هذي سور طوال تحتمل أكثر من موضع ، مدنيا كان أو مكيا ، ومع هذا لم يأت اسم هارون - عليه السلام - إلا مرتين فقط في السورتين المدنيتين ، في حين جاءت في المواضع ، الباقيات ١٨ مرة ، بنسبة ٩٠% ، أو بنسبة ١إلى ٩ .

ثانيا - تأتي في الغالب لفظة (هارون) مرتبطة بأخيه موسى بشكل أو بآخر ، أو بقصة موسى مع فرعون ، أو مع قوم موسى ، لكن هذا الاسم (هارون) جاء في مرات قليلات وحده ، غير مرتبط بموسى ولا بقصته ، وكان هذا في موضعين اثنين فقط من المواضع العشرين ، هذان الموضعان هما :

١- (يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا[1]) .

---

(١) ٢٨ مريم .

٢ـ (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً[1]) .

(يَا أُخْتَ هَارُونَ) هل هو هارون موسى ، أم غيره ؟ اختلف المفسرون ، فمن قائل بأنه أخو مريم من أبيها ، ومنهم من ذهب إلى أنه أخو موسى ـ عليهما السلام ـ قال النسفي : (يا آخت هارون : وكان أخاها من أبيها ، ومن أفضل بني إسرائيل ، أو هو أخو موسى ـ عليه السلام ـ وكانت مريم من أعقابه ، وبينهما ألف سنة ، وهذا كما يقال ـ يا أخا همدان ، أي : يا واحدا منهم ، أو هو رجل صالح ـ أو طالح ـ في زمانها شبهوها به في الصلاح ، أو شتموها به) .

والرأي أظنه هو هارون موسى ـ عليهما السلام ـ ومن ثم فإن تعبير (يَا أُخْتَ هَارُونَ) يا شبيهة هارون في الطهر والعفاف ، فإن مريم ـ عليها السلام ـ التي اختيرت لهذا الاختبار الصعب لابد أن تكون قمة العفة والتطهر، ولو كان في سلوكها وسيرتها أدنى أو أقل شيء يشوبها لما اختارها ربها لهذا الامتحان ، ولما عجب الناس من حملها بهذه الطريقة، لأنه لو تطرق أدنى شك أو أقله فيها ما عجب الناس هذا العجب من حملها ، ولما واجهت الناس بحملها ، وبهذه الطريقة .

على أية حال فإن بداية الحديث عن هارون ـ عليه السلام ـ وصف الآية لمريم بـ (أخت هارون) مريم كانت قمة الطهر والعفاف ، أخته في هاتين الصفتين ، أي أنه الأصل الذي نسبت إليه مريم، إذن فالصفة الأولى التي نسطرها لهارون هي :

الطهر والعفاف

(١) ١٦٣ النساء .

هذا عن الآية الأولى ، أما الثانية التي في النساء : (إنَّا أوْحَيْنا إلَيْكَ ...) فالآية موجهة إلى سيد الخلق ـ صلى الله عليه وسلم ـ أوحى الله إليه ، كما أوحى إلى غيره من الأنبياء والرسل ، ولذا في ذات الآية (كَمَا أوْحَيْنا إلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأوْحَيْنا إلى إبْرَاهِيمَ وَإسْمَاعِيلَ ...) إلى أن تصل إلى هارون ، معنى هذا أن هارون ـ عليه السلام ـ نبي موحى إليه ، مثل باقي الأنبياء ، من محمد إلى نوح ـ عليه السلام ـ ليس هذا فقط ، كيف ؟.

إن الآية التالية[1] تماما لما سبق، أي: (وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ) يا محمد (مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً) ثم الآية التي تلي : (رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً[2]) .

الآيات إذن تتحدث عن الرسل ـ عليهم السلام ـ الأولى تبدأ: (إنَّا أوْحَيْنَا) إليك يا محمد (كما أوحينا إلى ... وأوحينا إلى ...) وفي الآيتين بعد : (وَرُسُلاً قَدْ ... رُسُلاً مُبَشِّرِينَ) إذن هارون نبي ورسول ، الفرق بينهما أن النبي موحى إليه غير مكلف بتبليغ رسالة إلى الناس ، والرسول موحى إليه مكلف برسالة إلى المخاليق ، كما قال تعالى لمحمد : (يَا أيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أنزِلَ إلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ[3]...) ولذا فكل رسول نبي ، وليس كل نبي رسول.

ومن الطريف أن الآيات التي تسمى رسل الله بدءا من نوح وانتهاء بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذي الآيات أثبتت اسم رسول الله موسى ـ عليه السلام ـ

---

(١) ١٦٤ النساء .
(٢) ١٦٥ النساء .
(٣) ٦٧ المائدة .

أيضا ، بل ذكرته بصفة بارزة مهمة له ، ألا وهي : (وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً) وكأن الاسمان الكريمـان لم يفترقا هنا أيضا ، أو لم يذكر اسم هارون ـ عليه السـلام ـ وحده في تيك ـ تلك الآيات ـ بل ذكرا هنا أيضا أيضا .

إذن لم يذكر اسم هارون وحده غير مقترن بموسى أخيه ـ عليهما السلام ـ إلا فـي موضع مريم : (يَا أُخْتَ هَارُونَ) ولكن الاسم اقترن في الآيـة بآيـة من آيات الطهر والعفاف هي مريم ـ عليها السلام ـ وهذا شرف عظيم ، ما بعده شرف .

إذن ما الصفة الثانية التي أثبتها القرآن الكريم لهارون ـ عليه السلام ـ إنـه : نبي ورسول

ونذكر أولا الآيات التي تحدثت عن النبوة نثنيها بآيات الرسالة ، كما يلي :

ثالثا ـ النبـوة : وصف هارون بالنبوة ، وبلفظ صريح مباشر ، وإن جاءت هذه النبوة هبـة لموسى ـ عليـه السلام ـ رحمـة من الله تعالى لنبيه ، ففي سورة مريم : (وَوَهَبْنَا لَهُ) أي لموسى (أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً [1]) إذن فهذه هي الصفة الثالثة لهارون : النبـــوة

رابعا ـ البعثة والرسالة : وقد وردت هذي الصفة في ثلاث آيات ، هن :

١ـ (وَإِذْ نَـادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ، قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ) وكان رد موسى ورأيـه : (قَـالَ رَبِّ إِنِّـي أَخَـافُ أَن يُكَذِّبُونِ ، وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ[2]...) .

هذا طلب موسى ـ عليه السلام ـ إلى ربه ، الذي أجابه إلى طلبه ، كيف ؟

---

(١) ٥٣ مريم .
(٢) ١٠ : ١٣ الشعراء .

٢ـ (ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ، إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ[1]) إذن الرسالة شملت موسى وأخاه هارون ، أرسلا إلى فرعن وملئه بالآيات الواضحات والأدلة المصدقة المؤيدة لهما ، السلطان المبين أي : البرهان الظاهر البين .

٣ـ (ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ[2])

فالصفة التي سطرتها الآيات لهارون ـ عليه السلام ـ هنا هي ، أوهما :

البعثة والرسالة

هي الصفة الرابعة على أن (البعثة والرسالة) مترادفان ، أو هما صفتان ، البعثة والرسالة .

خامسا ـ أعطي الفرقان والضياء والذكر : الآية في سورة الأنبياء أعطت الأخوين ذات الشيء ، أو الأشياء ، ونحلتهما نفس العطايا ، ليس في هذي الآية فقط ، بل في غيرها ـ كما سيأتي ـ يقول المولى ـ جل وعلا : (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاء وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ[3]) .

أعطى الله موسى وهارون كليهما ثلاثة أشياء ، هي : (الفرقان ـ ضياء ـ ذكر للمتقين) ومعنى الثلاثة ، الفرقان : التوراة ، تفرق بين الحق والباطل ، وضياء من صفات التوراة أيضا ، ففي التنزيل : (إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ[4]) ومعنى

---

(١) ٤٥ ، ٤٦ المؤمنون .
(٢) ٧٥ يونس .
(٣) ٤٨ الأنبياء .
(٤) ٤٤ المائدة .

(وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ) المتقون يذكرون التوراة ، ويعملون بما فيها ، ويتعظون بمواعظها .

إذن فالكتاب الذي نزل - أي التوراة - والتي وصفها القرآن الكريم ، بهذي الأوصاف الثلاثة (الفرقان - ضياء - ذكر) للمتقين ، لم تك عطية من رب العباد إلى موسى فقط ، بل كانت عطية مشتركة لكلا المرسلين ، وعليه فإن ما سبق من الآيات والسطور أعطت هارون - عليه السلام - هذه المنحة .

التوراة

عطية مشتركة بين موسى وهارون تلك إذن الصفة الخامسة التي أعطيت لهارون .

سادسا - كلاهما من ذرية إبراهيم : وبما أن موسى وهارون شقيقان، فقد جاء الاثنان من شجرة واحدة ، شجرة طيبة ، أصلها ثابت ، وفرعها في السماء ، يقول ربنا : (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ[1]) لإبراهيم (إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ) ذرية إبراهيم (دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) وفي الآيات التاليات يقول الله (... أُولَـئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ...) .

إذن هارون - كما موسى - من ذرية إبراهيم - عليه السلام - ذلك انه لم يبعث نبي بعده إلا من ذريته ، ومن ذرية نوح قبله : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا

(١) ٨٣ ، ٨٤ الأنعام .

فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ [1]).

نـوح - عليـه السلام - الذي نجـا من الطوفـان ، فكل من بقـي بعد غرق أهـل الأرض جميعا كـان من ذريته ، ومن ثـم كـان كل الأنبياء بعد نوح من ذريته ، وبعد إبراهيم أيضا من ذريته ، ومنهم هارون وموسى .

لكن عيسى - عليه السلام - كان بلا أب ، فكيف دخل في ذريـة إبراهيـم ؟ إنه ينسب لإبراهيم من طريق أمه مريـم - عليها السـلام - هذا الحجـاج بن يوسـف الثقفي إلـى يكتب يحيى بن يعمر : (بلغني أنك تزعـم أن الحسـن والحسين من ذريـة النبـي - صلى الله عليه وسلم - تجده في كتاب الله ، وقد قرأته من أوله إلى آخره ، فلم أجده ؟ قـال : أليس تقرأ سورة الأنعام : ومن ذريته داود وسليمان ... حتـى بلـغ : ويحيى وعيسى ... قـال : بلـى ، قـال أليس عيسى من ذريـة إبراهيم ، وليس له أب ؟ قال : صدقت[2]).

يقـول ابن كثير[3] : ثبت في صحيح البخـاري أن رسـول الله - صلى الله عليه وسلم - قال للحسن بن علي : (إن ابني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلـح به بـين فئتين عظيمتين من المسلمين) فسماه ابنا ، فدل على دخوله في الأبناء ، من طريق فاطمة بنت محمد - عليه الصلاة والسلام - أي عن طريق الأم ، ليس الأب .

وعليه فإن هارون اشترك مع أخيه موسى في هذي الصفة السادسة :

هما من ذرية إبراهيم

---

(١) ٢٦ الحديد .
(٢) تفسير ابن كثير ٢/١٥٥ .
(٣) السابق .

سابعا ـ منن الله عليهما : في أية آية ذكر هذا المن ؟ في قوله تعالى : (وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ[1]) فما هي هذه المنن والنعم على الأخوين ؟ إنها :

١ـ (وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ[2]) الكرب هو قهر فرعون ومن معه ، وما كان يقوم به من قتل الأبناء واستحياء النساء ، وتسخير الناس في أخس الأعمال وأحقرها .

٢ـ (وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ[3]) نصر الله موسى وهارون ومن معهما على فرعون ومن معه ، وأقر أعينهم منهم ، فغلبوهم وأخذوا أرضهم وأموالهم ، وما كانوا جمعوه طوال حياتهم .

٣ـ (وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ[4]) الكتاب المستبين التوراة ، كتاب واضح ، جلي وعظيم .

٤ـ (وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ[5]) أي في الأقوال وفي الأفعال .

٥ـ (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الآخِرِينَ[6]) أبقى الله لهما ، من بعدهما ذكرا جميلا وثناء حسنا .

٦ـ (سَلامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ[7]) من الذكر الجميل لنبيي الله موسى وهارون والثناء الحسن أنه يسلم عليه في جميع الطوائف والأمم ، فما إن يذكرا أو أحدهما حتى يقال أو نكتب عبارة (عليه السلام) أو (عليهما السلام) .

---

(١) ١١٤ الصافات .
(٢) ١١٥ الصافات .
(٣) ١١٦ الصافات .
(٤) ١١٧ الصافات .
(٥) ١١٨ الصافات .
(٦) ١١٩ الصافات .
(٧) ١٢٠ الصافات .

وفي سورة الصافات[1] نفسها إخبار بالثناء الحسن ، ليس لموسى وهارون فقط ، بل لغيره من الأنبياء ، وبذات التعبير ، هكذا :

أ - (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ، سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي العَالَمِينَ) .

ب - (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ، سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ) .

جـ - (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الآخِرِينَ ، سَلامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ) .

د - (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ، سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ) .

هـ - (وفي النهاية تختم السورة - الصافات - بما يلي : (وَسَلامٌ عَلَى المُرْسَلِينَ) كل المرسلين ومنهم هارون وموسى (وَالحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ) ختام السورة .

وبعد السلام على موسى هارون تنص الآية بعدها : (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ[2]) .

وهكذا نستطيع أن نعد نعم الله ومننه على هارون وموسى ، أو ما وصف به هارون فيما سبق من آيات الصافات :

- النجاة من فرعون وقومه .
- النصرة عليهم .
- التوراة .
- الهداية إلى الصراط المستقيم .
- الثناء الحسن والذكر الجميل .
- السلام عليه .
- جزاء المحسنين .

(١) الآيات ٧٩ ، ١٠٩ ، ١٢٠ ، ١٣٠ .
(٢) ١٢١ الصافات .

ثامنا ـ آل موسى وآل عمران : جاء هذا في سورة البقرة [1] فقط ، قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ...) وبالفعل : بعث الله لهم طالوت ملكا ، لكنهم اعترضوا قائلين : (أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا ...) إلخ من الاعتراضات (وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) .

وكان على نبي بني إسرائيل أن يعطى قومه دليلا على جدارة طالوت بالملك عليهم ، وأن البركة فيه : (وَقَالَ لَهُمْ نِبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) .

كلمة (التابوت) وردت مرتين في القرآن ، في موضع البقرة هذا ، وفي سورة طه[2] : (إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى ، أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ...) .

التابوت إذن هو الصندوق الذي وضع فيه موسى ، وألقي في النيل ليقع في يد فرعون ، عدو لموسى ، وعدو ل له ، هذا هو التابوت الذي كان بنو إسرائيل محتفظين به حتى أخذ منهم، فإذا عاد إليهم تحمله الملائكة ، وفيه السكينة ، السكون والوقار ، وفيه أيضا بقية مما ترك آل موسى وآل هارون ، قيل إن هذه البقية هي عصا موسى وعصا هارون، وثياب موسى وثياب هارون ، ورُضاض[3] من الألواح، أي (كساره) أجزاء مكسورة منه ، أو كما نقول في مصر (كسر) منه .

---

(١) آية ٢٤٦ .
(٢) آية ٣٩ .
(٣) تفسير ابن كثير ٣٠١/١ .

على أية حال فإن ما نفهمه من الآية هنا هو :

- آل هارون مثل آل موسى .

- بقية آل هارون مثل بقية آل موسى .

- هارون ومتعلقاته مثل موسى ومتعلقاته .

ومن ثم نخلص أن التحاما تاما تم بين الأخوين ، لدرجة أننا يمكن أن نقول :
آلهما آل واحد .

بقيتهما بقية واحدة .

متعلقاتهما متعلقات واحدة .

شدة تلازم إذن بين هارون وموسى حتى بعد موتهما ، في الآل والبقية والمتعلقات ، ولولا هذا التلاحم وذياك التلازم لجاءهم التابوت فيه سكينة من ربهم ، وفيه بقية مما ترك آل موسى (فقط) ولكن حتى في هذه البقية ، أو حتى هذي البقية جمعت بين آل هارون وآل موسى ، عليهما السلام .

تاسعا - ربهما واحد : جمع بين موسى وهارون شيء مهم ، بالغ الأهمية ، وإن كان بدهيا غاية البداهة ، وهو العبودية لله ، كما جاء في الصافات[1] : (إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ) .

هاتان الصفتان : (العبودية له - الإيمان) كانتا مما توج به أنبياء الله قبل موسى وهارون ، وقبل هذا التاج مكافأة أخرى ، فمن هم هؤلاء الأنبياء ، إنهم : (نوح - إبراهيم - إلياسين) في سورة الصافات[2] ، وبذات الصياغة :

---

(١) آية ١٢٢ .
(٢) الآيات ٨١ ، ١١١ ، ١٣٢ .

التـاج	المكافأة
إنه من عبادنا المؤمنين	كذلك نجزي المحسنين

وهنا اشترك هارون - عليه السلام - مع أخيه موسى في المكافأة والتاج ، مع موسى فقط ؟ كلا ، معه ومع غيره من الأنبياء (نوح - إبراهيم - إلياس) .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن كل من آمن برسالة الأخوين كان حريصا على أنه آمن برب موسى وهارون كليهما معا ، عندما آمن السحرة ، سحرة فرعون ، قالوا : (آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ، رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ[1]) - (قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى[2]) .

ومن ثم نجد هارون مثل موسى :

- عبد لله .
- مؤمن به .
- ربهما رب العالمين ، رب واحد .

عاشرا - ردء مصدق لفصاحته : عندما أرسل الله - سبحانه وتعالى - إلى موسى كان رده الفوري : (...وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ، قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ[3]) .

(١) ١٢١ ، ١٢٢ الأعراف ، ٤٨ الشعراء .
(٢) ٧٠ طه .
(٣) ٣٤ ، ٣٥ القصص .

هاتان الآيتان تلقيان الضوء على مكانة هارون ومنزلته من أخيه موسى - عليهما السلام - هذه المكانة عناصرها :

- ردء .
- مصدق .
- لأنه أفصح من موسى لسانا .
- يشد عضد أخيه .
- لهما كليهما سلطان على فرعون وقومه .
- لا يصلون إليهما .
- هما ومن اتبعهما الغالبون بآيات الله .

الردء : القوة والعون ، يشد عضده : يقويه ويؤيده.

السلطان : القهر والغلبة ، يصلون : يبلغون إليهما ، ويتمكنون منهما.

بآياتنا ، الآيات : العلامات والمعجزات والدلائل والعبر ، هارون وموسى ومن اتبعهما هم الغالبون بفضل من الله وقدرة ومنٍّ منه فقط .

حادي عشر- وزير موسى : وقعت كلمة (وزير) في القرآن الكريم مرتين[1] فقط ، فقط : (...وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي ، هَارُونَ أَخِي ، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي) - (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً) .

هذا المنصب (الوظيفة) لم يسبق به أو بها أحد ، قبل هارون - عليه السلام - وقد فسرت الآية الأولى هنا مهام هذا الوزير :

- اشدد به أزري .
- أشركه في أمري .

---

(١) ٣٠ طه ، ٣٥ الفرقان .

الوزير : المعين والمساعد ، اشدد به أزري : قوني ، الأزر القوة ، أي زد في قوتي ، وأعني به ، أشركه في أمري : اجعله شريكا لي في مهمتي مع فرعون وقومه .

ثاني عشر : خلافته لموسى في قومه : وقد جاء هذا في سورتين ، الأولى : (وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ[1]) .

عندما ذهب موسى - عليه السلام - إلى (الطور) ليكلم ربه ، لم يترك قومه هملا ، دون راع يرعاهم ، لقد استخلف عليهم أخاه هارون ، ثم أوصاه بما يلي :

- أصلح .
- ولا تتبع سبيل المفسدين .

وقد تم هذا الاستخلاف بالفعل ، وخضع الخليفة لمساءلة قاسية من موسى الذي استخلفه ، ففي سورة طه : (وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ، قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى[2]) .

وفي هذا كله إفادة بأن هارون قد تسلم عمله خليفة لأخيه موسى ، وقد قام بعمله خير قيام ، نصح قومه في غياب أخيه ، وإن كانوا لم ينتصحوا بنصحه .

أما مساءلة موسى لأخيه ففي قوله : (قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ

(١) ١٤٢ الأعراف .
(٢) ٩٠ ، ٩١ طه .

ضَلُّوا ، ألا تَتَّبِعَنِ أفَعَصَيْتَ أمْرِي ، قَالَ يَا ابْنَ أمَّ لا تَأخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأسِي[1]) وصل الأمر بموسى إلى أن أخذ بلحية أخيه وبرأسه ، فدافع عن نفسه : (إنِّي خَشِيتُ أن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي[2]) .

أي أن اعتراض هارون بفاعلية على بني إسرائيل كان سيدفعهم إلى الانقسام والفرقة ، هذي مبررات هارون .

ومن ثم يجوز السكوت عن بعض التجاوزات إذا كانت معارضتها ستؤدي إلى الفرقة ، ولا تؤدي إلى معالجة هذي التجاوزات ، وعليه فقد ترك - صلى الله عليه وسلم - إزالة الأصنام من بيت الله الحرام حتى كان هذا في عام الفتح، هذا مثال فقط ، ولعل لنا عود إلى هذي النقطة فيما بعد .

خادم العربية
أحمد مصطفى أبو الخير
رئيس قسم اللغة العربية
جامعة المنصورة
www.geocities.com/abu_elkher
www.askzad.com
abu_elkher@yahoo.com

(1) ٩٢ ، ٩٣ طه .
(2) ٩٤ طه .

ذكر خالد لهارون
على مر الزمان وكرّ الدهور

د. أحمد مصطفى أبو الخير
رئيس قسم اللغة العربية ، جامعة المنصورة

تحدثنا في دراسة سبقت عن ذكر هارون ـ عليه السلام ـ ومنزلته لدى أخيه موسى ، وهنا نتحدث عن تاج آخر توج به نبي الله هارون ، ذكر توج نبي الله أبد الآبدين ، وإلى آخر الزمان ، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها.

إنه حديث سيد الخلق(ﷺ) الذي قال فيه لابن عمه، على بن أبي طالب (عليه السلام) بالنص والحرف [1] :

أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ؟

إلا أنك لست بنبي ، إنه لا ينبغي أن أذهب إلا وأنت خليفتي.

علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ أول ذَكَر من الناس آمن برسول الله(ﷺ) وصدق بما جاءه من الله تعالى ، وتشرف بالصلاة معه ، وكان عمره إذ ذاك [2] عشر سنين فقط.

كما تشرف بشيء آخر مهم أنه ربى في حجره (ﷺ) إذ يحكى أن قريشا أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كِثار، فقال محمد لعمه العباس ـ وكان من أيسر بني هاشم ـ يا عباس : إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى ، فانطلق بنا إليه ، فلنخفف عنه عياله ، آخذ من بنيه رجلاً ، وتأخذ من بنيه

---

(١) قلعجي ، د.عبد المعطي : مناقب علي والحسين ، وأمهما فاطمة الزهراء ، ص٨٠.
(٢) وروي أن عمره كان تسع سنوات أو أقل.

رجلاً ، فنكلهما عنه ، قال العباس : نعم.

فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا له : إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه .... فأخذ رسول الله علياً فضمه إليه ، وأخذ العباس جعفرا فضمه إليه ، فلم يزل علي مع رسول الله (ﷺ) حتى بعثه الله نبياً ، فاتبعه علي (عليه السلام) وآمن به وصدقه ، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم ، واستغنى عن عمه.

وفي بداية الدعوة كان رسول الله إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة ، ومعه عليّ مستخفيا من أبيه ومن أعمامه وسائر قومه ، ويصليان معاً ، فإذا أمسيا رجعا ، فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا ، إلا أن الأب عرف في النهاية ما يفعل عليّ وابن أخيه، فقال : أي بني ، ما هذا الدين الذي أنت عليه؟ قال : يا أبت ، آمنت بالله ، وبرسول الله ، وصدقته بما جاء به ، صليت معه لله ، واتبعته ، فقال : أما أنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه [1] ، وقال عليّ : اللهم لا أعترف أن عبداً لك من هذه الأمة عبدك قبلي، غير نبيك - كررها ثلاثاً - ثم أضاف : لقد صليت قبل أن يصلي الناس[2] سبعاً.

ومما نذكره عن عليّ هنا روايته : دعا رسول الله (ﷺ) بني عبد المطلب ، فيهم رهط كلهم يأكل (الجذعة[3]) وحده ، ويشرب (الفرَق[4]) أي وحده ، صنع

(١) سيرة ابن هشام ١ / ٢٤٥.
(٢) قلعجي : مناقب علي ، ص٢٦.
(٣) ما بلغ من الضأن ثمانية أشهر ، أو تسعة.
(٤) مكيال قديم ، يوازي ٦ أقداح مصرية ، أي يقدر - في رأيي - بحوالي نصف صفيحة مياه ، تصل إلى عشرة لترات.

لهؤلاء الرجال (مدا [1]) من طعام فقط ؟ فقط ، لكن القوم أكلوا حتى شبعوا ، فقط ؟ كلا ، بل بقي الطعام كأنه لم يُمَس.

ثم دعا بـ (غمر [2]) فشربوا حتى رووا فقط ؟ كلا ، بل بقي الشراب كأنه لم يمس ، أو لم يشرب ، قال النبي : يا بني عبد المطلب : (إني بعثت لكم خاصة ، وإلى الناس بعامة ، وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم).

عددهم حوالي العشرة ، كل واحد منهم يستطيع يأكل خروفا ويشرب ما يقرب من عشرة لترات من الماء ؛ ولكنهم جميعا ما استطاعوا أن يأكلوا نصف قدح ، أو أن يشربوا هذا الجزء القليل من الماء ، هذه معجزة قدمها محمد لأعمامه ، بني عبد المطلب قائلاً لهم : (فأيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي ؟) يقول عليّ : فلم يقم إليه أحد ، قال : فقمت إليه ، وكنت أصغر القوم ، فقال : اجلس ، ثلاث مرات أقوم إليه ، ويقول : (اجلس) حتى كانت الثالثة ضرب بيده على [3] يدي.

في هذه البيعة أصبح عليّ أخا وصاحبا لمحمد (ﷺ) ، هو أول مؤمن به ، أول من صلى معه ، أول صاحب له ، وفي البدء والنهاية هو أخ له بهذه البيعة ، ومنذ إشراق فجر دعوة محمد وانبلاجها.

والآن نرجع إلى الحديث عن هارون فنجمل ما أعطاه له ربه، علاقته بأخيه، دوره معه ، منزلة هارون من موسى ، ثم نتبع هذا بما حصل بين محمد وعليّ يؤكد ويطبق المؤاخاة والمنزلة بين سيد الخلق وبين ابن عمه وصهره ، عليّ بن أبي

---

(١) المد = نصف قدح مصري.
(٢) أصغر الأقداح ، يقتسم القوم به الماء بينهم ، إذا قل في السفر ، بأن يلقوا فيه حصاة ، ويعطي كل منهم من الماء قدر ما يغمر هذه الحصاة.
(٣) قلعجي : مناقب عليّ ، ص٢١.

طالب فنقول :

إن أول الأشياء التي اشترك فيها الأخوان موسى وهارون هو النبوة والرسالة ، وكتابها التوراة ، محمد (ﷺ) يحسم هذا الأمر من بدء البداية : (إلا أنك) يا عليّ (لست بنبي) وفي الرواية الأخرى : (إلا أنه لا نبوة بعدي) أي لا نبي غير محمد (ﷺ).

والشيء الثاني الذي نثني به هو صفات أعطيت لهارون ولم يأت ذكر لموسى - عليه السلام - فيها ، حين وصفت مريم - عليها السلام - بأنها : (أخت هارون) أي في الطهر والعفاف.

وكان عليّ - عليه السلام - آية في الطهر والعفاف، ولم لا، وقد ربي في حجر سيد الخلق (ﷺ) لم يسجد لصنم قط ، كان أول من آمن به ، وصلى معه ، ليس في بيته فقط ، بل كان يذهب معه إلى شعاب مكة يصليان ، ثم يعودان في المساء ، كما سبق.

والشيء الثالث والأهم المهم ما اشترك فيه هارون مع أخيه موسى - باستثناء النبوة - أو بمعنى آخر منزلة هارون من موسى لنحدد منزلة عليّ - عليه السلام - من ابن عمه ، محمد (ﷺ) ، كما يلي :

١- أول شيء جمع بين هارون وموسى أنهما أخوان ، ولذا فإن أول ما ربط بين محمد وبين ابن عمه (عليّ) ليس العمومة فقط ، بل الأخوة ، وقد تم هذا بدء الدعوة ومستهلها عندما جمع بني عبد المطلب ودعاهم إلى الطعام ، وإلى أن يبايعوه على الأخوة والصحبة ، فلم يستجب له إلا عليّ ، وقد تم إعلان أخوة عليّ لمحمد وصحبته في بيعة علنية شهدها هؤلاء الأعمام.

وكما صاحب هارون أخاه في كل مراحل الدعوة فقد صاحب عليّ ابن عمه في كل مراحل دعوته حتى وفاته (ﷺ).

أي أن أخوة النسب والدم لم تجمع بين هارون وموسى فقط ، بل جمعت بينهما أيضاً الصحبة في الدعوة إلى الله، كما حدث بين محمد (ﷺ) ليس الأخوة فقط، أو النسب ، بل أيضاً الصحبة في طريق الدعوة إلى الله حتى تحقيق النصر النهائي على أعداء الله وأعدائهما.

نموذج موسى وهارون في الأخوة والصحبة نموذج فريد في البشرية لعلنا لا نجد له مثيلا أو نظيرا ، انظر لو أنك تشتري شيئا من بائع مهذب - وقليل ما هم - ثم قال لك : انصرف إلى أخي فاشتر منه ، أو أن امرءا أعطى وظيفة أو منصبا رفيعا أو جائزة كبيرة ، أو خيرا ما ، ثم تبرع بهذا لأخيه.

وانظر إلى موسى - عليه السلام - إنه لا يتبرع بهذا الخير العميم إلى أخيه هارون ، بل يرى أنه الأجدر والأكفأ والأصلح لهذه المهمة ، موضوعية وتجرد في الحكم لعلنا لا نجد لها نظيرا إلا في أخوة النبيين الكريمين.

تذكر أيها القارئ هذى الآيات الكريمات : (وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۞ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ ؟) ماذا كان رد موسى : (إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ) لماذا يا رسول الله؟ يضيف : (وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي) ثم يقترح: (فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ[1])

وفي سورة طه : (وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي ۞ هَارُونَ أَخِي ۞ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۞ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ۞ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً ۞ وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً ۞ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا

(١) ١٣ الشعراء.

بَصِيراً [1]) طلب موسى (ﷺ) أن يكون أخوه معينا له في دنياه ومعاشه ومسئولياته ، ومعينا أيضا على طاعة الله.

هذا مثال على الأخوة الحقة الحقيقية التي تتوخى الإيثار والموضوعية مع الأخ الآخر ، فأين هذا مما تجده فشا بين الناس والأسر من تنافر تام لا نظير له بين الإخوة والأشقاء ، حتى إنه يحكى كثيرا أن هذا الشقيق لم يدخل بيت شقيقه إلا عندما قضى الأخير ، والأمثلة أكثر من أن تحصى وتنعد.

إن التعاون بين الناس في المعاش وفي الطاعات ـ برغم صعوبته ـ لا يؤدي بالناس إلا إلى الخير والازدهار ورضوان الله ، والسعادة في الدارين ، في حين لا يأتي التقاطع والتدابر بين الناس إلا بالفقر وسوء العاقبة في الدارين.

يقول أخو محمد ، ومَنْ منزلته من منزلة هارون من موسى : (إن أهل البيت ليجتمعون ويتواسَوْن ـ وهم فجرة ـ فيرزقهم الله ، وإن أهل البيت ليتفرقون ، ويقطع بعضهم بعضا فيحرمهم الله وهم أتقياء) ويقول حفيده الباقر في ذات المعنى : (إن القوم ليكونون فجارا فيتواصلون ، فتنمى أموالهم ويثرون).

٢ ـ كلاهما عبد لله مؤمن به : كان هارون وموسى ومحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ كانوا جميعا عبادا ورسلا من عند الله ، مؤمنين به على القطع والبديهة ، ولكن كان عليّ (ﷺ) عبدا مؤمنا لله ، لا نبوة لديه ولا رسالة ولذا كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ حريصا على إثبات هذه العبودية لله، قبل ذكر الرسالة، ففي رسائله إلى الملوك والزعماء لم يك محمد (ﷺ) حريصا على تفخيم ذاته ، وتعظيم شانه ، بل كان حريصا على وصف نفسه من البداية بأنه عبد الله ، ثم : (الرسالة) :

---

(١) ٣٥ طه.

أ ـ من محمد ، عبد الله ورسوله ، إلى هرَقْل ، عظيم الروم.

ب ـ من محمد ، عبد الله ورسوله ، إلى المقوقس عظيم القبط.

بل كثير من الآيات تذكر عن محمد (ﷺ) صفة العبودية فقط : (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً)[1] (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)[2] (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً)[3] وكلها بدايات السور.

وفي دعائه (ﷺ) لمدينته المطهرة: (اللهم : إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك، وإني عبدك ونبيك ، وإنه دعاك لمكة ، وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ، ومثله معه[4]).

ومن ثم فإن الصفة التي تنسب لعليّ هنا ـ بداهة وقطعا ـ والتي أثبتت لهارون وأخيه ومحمد ، هي العبودية لله والإيمان به ، بل لقد كان أول من آمن ـ بعد خديجة ـ وأول من صلى خلف سيد الخلق ، كما سبق.

٣ـ منن الله على موسى وهارون : وكما مَّن الله على الأخوين بما يلي : (الهداية إلى الصراط المستقيم ـ النصرة على الكافرين ـ الثناء الحسن ـ الذكر الجميل ـ السلام عليه ـ جزاء المحسنين) فكذلك مَنَّ على محمد وعليّ بكل ما سبق ، من الهداية والنصرة والثناء والذكر الحسن والسلام عليه وجزاء المحسنين.

وقد يماريك بعض الناس ، كيف تقول : عليّ ـ عليه السلام ـ هل هذا صح ؟ نعم صح وصحيح وحق وحقيق ، كيف ؟ لأن منزلة عليّ من محمد كمنزلة هارون

---

(١) الإسراء.
(٢) الكهف.
(٣) الفرقان.
(٤) تفسير ابن كثير ١ / ١٧٣.

من موسى ، وبما أن هارون حظي بهذا الشرف في القرآن الكريم ، فإن هذا من حق عليّ أيضا ، ففي التنزيل ـ كما سبق : (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الآخِرِينَ ۞ سَلامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ[1]).

٤ـ موسى وهارون كلاهما من ذرية إبراهيم : وهذا شيء بدهي مشهور في التاريخ، إبراهيم (ﷺ) هو أبو الأنبياء ، ومن نسله موسى وهارون ، ومحمد (ﷺ) كان هو الآخر من ذرية إبراهيم ، في الحديث الشريف : (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم[2]).

فإذا كان هارون وأخوه من ذرية إبراهيم ، فإن محمداً وعلياً أيضاً من ذرية إبراهيم (ﷺ) بل ممن اصطفى من وُلد إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما السلام ـ هما ليسا من ذرية إسماعيل فقط ، بل ممن اصطفى من هذى الذرية.

في سورة البقرة يقول المولى : (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً) نجح إبراهيم في الاختبار فكافأه الله ، فجعله إماماً ، ولكنه ـ عليه السلام ـ أراد الإمامة ، ليس له فقط ، ولكن لذريته أيضاً ، فقال ربه : (لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ[3]).

كان إبراهيم (ﷺ) إماما ، يقتدى به في الصلاح والتقى وخيرىْ الدنيا والآخر ، وبما أن الله قد جعل من ذريته من يقتدى به ، مثل محمد وعليّ ، ومثل هارون وموسى ، فقد كان هؤلاء الأربعة ـ وفيهم عليّ ـ أئمة خير يقتدى بهم ، ليسوا

(١) ١٢٠ الصافات.
(٢) صحيح مسلم ٢ / ٣١٠.
(٣) ١٢٤ البقرة.

من الظالمين ، ولو كانوا كذلك ما نالوا عهد الله ، والعهد الالتزام والميثاق.

٥ ـ آل هارون وآل موسى: فقد ذكر في آية[١] البقرة: (إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ) إذا كانت هذه الآية تعني أن آل موسى مثل آل هارون ، وبقية كل من الآلين ـ ما تركاه ـ مثل الآخر ، ومتعلقات موسى مثل متعلقات أخيه هارون فإن هذا ينطبق على عليّ ابن أبي طالب (عليه السلام) بما أن منزلته من رسول كمنزلة هارون من موسى ، عليهما السلام.

آل عليّ مثل آل محمد ، بقية الأولين نفس بقية الآخرين ، متعلقات عليّ مثل متعلقات محمد ، ما تركه الأول مثل ما تركه الثاني ، وما تركه الثاني مثل ما تركه الأول ، جاء النبي الأكرم (ﷺ) ومعه عليّ وحسن وحسين (ﷺ) آخذا كل واحد منهما بيده ، حتى دخل ، فادنى علياً وفاطمة ـ رضي الله عنهما ـ وأجلسهما بين يديه ، وأجلس حسناً وحسيناً ـ رضي الله عنهما ـ كل واحد منهما على فخذه ، ثم لفف عليهم ثوبه أو كساءه ، ثم تلا (ﷺ) : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً[٢]) وقال :

اللهم هؤلاء أهل بيتي ..

وأهل بيتي أحق[٣]

عليّ وزوجه وابناه هما أهل بيت محمد ، فآل عليّ هم همُو آل محمد ، وآل محمد همْ همُو آل عليّ ، رحمة الله وبركاته عليهم أجمعين أجمعين.

---

(١) ٢٤٨ البقرة.
(٢) ٣٣ الأحزاب.
(٣) تفسير ابن كثير ٣ / ٤٨٣.

٦ـ ردء مصدق ووزير : لم يك يجمع بين هارون وبين موسى أخوة الدم والنسب فقط ، أو النبوة والرسالة فقط ، بل كان هارون لموسى :

- ردءا.
- مصدقا.
- يشد عضده وأزره.
- وزيرا له.
- شريكا له في أمره.

وهكذا كان عليّ ـ عليه السلام ـ مصدقا بخاتم الرسل ، بل كان أول المصدقين المؤمنين به ، كان ساعده الأيمن ووزيره المشارك المؤازر المعاضد في كل الأمور ، وهذى أمثلة :

١ـ في المعارك كان المبارز المجندل للأبطال ، ففي بدر خرج مع عمه الحمزة ، وجندلا أبطال قريش عتبة وشيبة ابني ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وفي معركة الخندق قتل عمرو بن عبد ود الذي تحدى جيشاً بأكمله ، ولم يقم له إلا عليّ ، عليه السلام.

وفي خيبر قال رسول الله (ﷺ) : (لأعطين الراية غداً لرجل يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله) فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله (ﷺ) كلهم يرجو أن يعطاها ، فقال : (أين عليّ ؟ .. فأعطاه الراية ، ثم قال له : (انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ..) ثم ماذا ؟ هل أمره بأن يقتل يهود خيبر وأن يشرب من دمائهم ؟ كلا ، لقد أمر أخاه في الدنيا والآخرة : (ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم).

وبالفعل خرج أخو النبي المصطفى المصفى من القذى إلى اليهود ، دعاهم إلى الإسلام ، رفضوا ، برزوا للقتال ومعهم زعيمهم مرحب الذي دعا إلى المبارزة ، ثم قتله عليّ في النهاية.

يروي أبو رافع مولى رسول الله (ﷺ) أن الصحابة خرجوا مع عليّ - عليه السلام - حين بعثه رسول الله برايته ، فلما دنا من أحد حصون خيبر خرج إليه أهله فقاتلهم عليّ (عليه السلام)، فطاح ترسه من يده ، فتناول عليّ (عليه السلام) باباً كان عند الحصن فترّس به عن نفسه ، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ، ثم ألقاه من يده حين فرغ ، يقول أبو رافع : لقد رأيتني في نفر سبعة معي - أنا منهم - نجهد أن نقلب ذلك الباب ، فما نقلبه [1].

كما ثبت عليّ (عليه السلام) مع الثابتين حول النبي (ﷺ) حين انفض عنه كثير من الناس في معركتي أحد وحنين ، هذا جزء من بطولاته في حياة أخيه المصطفى (ﷺ) وهي قل من كثر ونزر من بحر وغيض من فيض ، بطولات جديرة بمجلدات ومجلدات ، بل قمينة وقمنة بأكثر وأكثر من هذا.

٢- ليس في الحرب كان أخو النبي بطلا مغوارا ، ولكن أيضا في السلم ، فهذي بعض المهام التي أوكلت إليه :

أ - يقول عليّ بن أبي طالب : انطلقت أنا والنبي (ﷺ) حتى أتينا الكعبة ، فقال لي رسول الله : اجلس وصعد على منكبي ، فذهبت لأنهض به ، فرأى مني ضعفا ، فنزل وجلس لي نبي الله ، وقال اصعد على منكبي ، فصعدت على منكبيه ، ثم نهض بي ، يقول عليّ : فإنه يخيل إليّ أني لو شئت لنلت أفق السماء ، حتى

---

(١) سيرة ابن هشام ٣ / ٣٣٥.

صعدت على البيت ، وعليه تمثالُ صُفر أو نحاس ، فجعلت أزاوله عن يمينه وعن شماله ، وبين يديه ومن خلفه حتى إذا استمكنت منه ، قال لي رسول الله : (اقذف به) فقذفت به : فتكسر كما تكسر القوارير[1].

ب - وعليّ أيضا قال : كان رسول الله (ﷺ) في جنازة ، فقال : (أيكم ينطلق إلى أهل المدينة، فلا يدع فيها وثنا إلا كسره، ولا قبرا إلا سواه ، ولا صورة إلا لطخها؟) فقال رجل: أنا يا رسول الله ، فانطلق ، فهاب أهل المدينة ، فرجع ، فقال عليّ : أنا أنطلق يا رسول الله، قال : فانطلق ، فانطلق، ثم رجع، فقال : يا رسول الله ، لم أدَعْ بها وثنا إلا كسرته ، ولا قبرا إلا سويته ، ولا صورة إلا لطختها) ثم قال رسول الله (ﷺ) : (من عاد لصنع شيء من هذا فقد كفر بما أنزل على محمد) ثم قال : (لا تكونن فتانا ولا مختالا ، ولا تاجرا إلا تاجر خير ، فإن أولئك هم المسبوقون بالعمل[2]).

جـ - عندما نزلت سورة براءة أرسل النبي الأكرم (ﷺ) أبا بكر ، فلما كان في بعض الطريق أرسل علياً فأخذها ، فلما رجع أبو بكر قال : (نزل فيّ شيء؟) أي شيء يقدح فيه ، قال لا ، ولكني أمرت أن أبلغها أنا أو رجل من أهل بيتي ، فانطلق عليّ إلى أهل مكة ، فقام فيهم بأربع :

- لا يدخل مكة مشرك بعد عامه هذا (العام التاسع).
- ولا يطوف بالبيت عريان.
- ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة.
- ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فعهده إلى مدته.

---

(١) قلعجي : مناقب عليّ والحسين .. ص١٥٠.
(٢) السابق ، ص١٥١ - ١٥٢.

وفي رواية أخرى : (ولكن جبريل جاء في بعض الطريق ، فقال : لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك) وقبل هذا دار حوار بين محمد وأخيه عليّ حين بعثه ببراءة :

عليّ : يا نبي الله ، إني لست باللسن ، ولا بالخطيب.

محمد : لابد لي أن أذهب بها أنا أو تذهب بها أنت.

عليّ : فإن كان لابد فسأذهب أنا.

محمد : انطلق ، فإن الله يثبت لسانك ويهدي قلبك.

ثم وضع محمد يده على فم[1] عليّ.

حوار يشبه ذياك الحوار القديم بين موسى - عليه السلام - وبين ربه: (وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۞ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۞ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ۞ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۞ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ[2]).

وفي سورة[3] القصص : (وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۞ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ....).

على أي حال فإنا نختم الحديث عن البراءة بهذى الرواية : (لما كان أبو بكر ببعض الطريق - إلى مكة - هبط جبريل (عليه السلام) وقال : يا محمد ، لا يبلغن رسالتك إلا رجل منك ، فأرسل علياً) لهذه المهمة.

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ٣٣٣.
(٢) ١٠ - ١٥ الشعراء.
(٣) ٣٥ القصص.

د - وبما أن علياً (عليه السلام) تربى منذ طفولته في حجر أخيه (ﷺ) فقد كان يعيا بعض البلغاء عن فهم المعنى النبوي ، وكان يراه عليّ بادي الرأي ، هذا العباس ابن مرداس يشكو إلى النبي (ﷺ) قسمه من الفيء قائلا :

أتجعل نهبي ونهب العبيـ ـد كنهب عيينة والأقرع

والعبيد فرس الشاعر ، وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس من المؤلفة قلوبهم.

المصطفى (ﷺ) يصدر أوامره إلى أخيه : (يا عليّ ، اقطع لسانه) أخذه عليّ ومضى ، العباس يتساءل من الخوف : (أقاطع أنت لساني يا أبا الحسن؟) ويرد أخو النبي بكل حزم : (إني لممض فيك ما أمر) ترى عزيزي القارئ كيف نفذ عليّ أمر أخيه ؟ فكر قليلا ، ثم قل لي ، كيف نفذ الأمر ؟

لقد ذهب بهذا الرجل ، إلى أين ؟ إلى المقصلة ؟ كلا ، إلى الجلاد ؟ كلا ، لقد ذهب به علي ، إلى ماذا ؟ ذهب به عليّ إلى إبل الصدقة ، لماذا ؟ وماذا قال له ؟ قال له فقط : (خذ ما أحببت)[1] فقط لسانه.

هذا هو عليّ الذي قال فيه المصطفى (ﷺ) مما قال : (أنا دار الحكمة وعليّ بابها[2] - عليّ عيبة [3] علمي ، موضع سري ، ومعدن نفائسي) وفي رواية أخرى : (أنا مدينة العلم ، وعليّ بابها ، فمن أراد العلم فليأت بابه).

ومن هذا العلم خرج النحو العربي ، يقول أبو الأسود الدؤلي - وكان من

---

(١) الجندي ، المستشار عبد الحليم : الإمام جعفر الصادق ، ص٢٩.
(٢) قلعجي : ص٣٢.
(٣) جمع الجوامع للسيوطي ، ص٣٣٤٧.

أنصار أمير المؤمنين وتلامذته ، يقول : دخلت على أمير المؤمنين ، فوجدت في يده رقعة ، فقلت : ما هذه يا أمير المؤمنين ، فقال : إني تأملت كلام العرب ، فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء (الأعاجم) فأردت أن أضع شيئا يرجعون إليه ، ثم ألقى الرقعة ومكتوب فيها :

(الكلام كله اسم وفعل وحرف ، فالاسم : ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبئ به ، والحرف ما أفاد معنى) وقال لأبي الأسود : (انح هذا النحو) وبدا التلميذ في العمل ، وفي النهاية عرض العمل على الإمام الذي قال : (ما أحسن هذا النحو الذي نحوت) ولذا سمي النحو.

علم مهم من أهم علوم العربية وأنفسها وضع جذوره وبذوره الإمام عليّ ، وأنضجه فاستوى على سوقه - يعجب الأجيال التي تتوارثه جيلا بعد جيل - أنضجه تلميذ في[1] مدرسة الإمام ، هو العبقري أبو الأسود الدؤلي.

ليس النحو فقط من اكتشاف الإمام عليّ ، بل الصرف أيضا ، جاء في[2] مقدمة شذا الصرف في فن الصرف (الذائع الصيت) للشيخ أحمد الحملاوي : (وواضعه) أي علم الصرف (هو معاذ بن مسلم الهرّاء ، وقيل سيدنا عليّ ، كرم الله وجهه) وهو رأي بحاجة إلى مزيد تفصيل في موضعه، كما أنه منطقي جدا ومعقول، فإن النحو مرتبط شديد الارتباط في الدرس اللغوي العربي - قديمه والجديد - بالصرف ، فإذا تأكدنا أن الإمام عليّ هو واضع الأساس لعلم النحو فإن الوارد أن يكون أيضا صاحب الفضل في علم الصرف أيضا.

كما أن تلامذة الإمام الذين ربوا في مدرسته هم الذين وضعوا أسس إصلاح

---

(١) الجندي : الإمام جعفر ، ص٢٩.
(٢) ص١٧.

الكتابة العربية ، وأهم أسس علوم العرب :

أ - أبو الأسود الدؤلي : صاحب مصطلحات : (الفتحة والضمة والكسرة) وإن اختار لرمز الفتحة نقطة عن يمين الحرف والضمة نقطة عن يسار الحرف ، والكسرة نقطة تحت الحرف.

ب - نصر بن عاصم تلميذ أبي الأسود ويحيي بن يعمر: أعادا ترتيب الحروف العربية من ترتيب (أبجد - هوز - حطي - كلمن ...) الخ إلى الترتيب الألفبائي الحديث (أ ب ت ث - ج ح خ - د ذ ... و ي) وقد أعيد الترتيب لوضع الحروف المتشابهة إلى جانب بعضها ، ثم ميزت هذه الحروف المتشابهة بالنقط ، الباء نقطة تحت ، التاء نقطتان فوق ، الثاء ثلاث نقاط فوق ، الحاء بلا نقط ، الخاء نقطة فوق ، الجيم نقطة تحت ، الدال مهملة من النقط ، الذال نقطة فوق ... وهكذا.

جـ - الخليل بن أحمد : عبقري العربية ، واضع علم العروض وصاحب المعجم الأول المتفرد في العربية، وأستاذ القياس في النحو ، هو أول من أكمل إصلاح الكتابة العربية ، فحول نقط أبي الأسود إلى علامات بقيت إلى اليوم ، الفتحة ألف صغيرة مضجعة - أو شرطة - عن يمين الحرف، والضمة واو صغيرة عن يسار الحرف ، والكسرة ياء راجعة تحت الحرف هكذا (ے) ثم تحولت إلى شرطة تحت الحرف.

ليس هذا فقط ، بل علامة السكون خاء صغيرة على الحرف هكذا (خ) والتي تحولت إلى دائرة (٥) ثم رأس شين (س) للحرف المشدد ، اختصار (شديد) رأس عين هكذا (ء) اختصار قطع لهمزة القطع ، في مقابل رأس (صـ) على ألف الوصل هكذا (صـا) اختصار وصل.

وهكذا يكون في أعناقنا ـ نحن المتخصصين في علوم العربية ـ دين وأي دين للإمام عليّ ولمدرسته ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

بعد هذى الاستطرادة نعود إلى حديثنا الرئيس ، منزلة هارون من موسى، فالعود في كل شيء أحمد وأعلى المحامد ، فنقول :

٧ـ خلافته في أهله : كان من أهم الأحداث في حياة هارون وموسى ما جاء في التنزيل : (وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ[1]) لقد ذهب موسى (عليه السلام) لتكليم ربه ، وقبل أن يذهب استخلف عليهم أخاه هارون.

وعندما عاد كان له عتاب قاس مع أخيه :

- في سورة الأعراف [2] : (..... وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ.....)).
- وفي سورة [3] طه : (وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ۞ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ۞ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۞ ألا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي)).

كل هذا معناه أن الاستخلاف قد تم ، وأن قوم موسى قد عصوا مبررين هذا، أو مستمرين (حتى يرجع إلينا موسى) وهذا ـ في رأيي ـ تحذير لأمة محمد (ﷺ) من العصيان ، إن غاب عنهم رسولهم.

على أي حال ، وعلى أي الأحوال فإذا كانت منزلة عليّ من محمد هي بمنزلة هارون من موسى، فمن الذي استخلف؟ هارون أم موسى؟ هارون هو الذي استخلف

(١) ١٤٢ الأعراف.
(٢) ١٥٠ الأعراف.
(٣) ٩٠ ـ ٩٤ طه.

أو خلف موسى ، ومن ثم فإن علياً هو الذي سيخلف محمداً ، وهذا ما تم بالفعل في حياة النبي الأكرم (ﷺ) كيف ؟

١- نسأل الصغار والكبار والجهلاء قبل العلماء ، ماذا صنع سيد الخلق حين هاجر من مكة على المدينة ؟ ومن نام مكانه ؟ ومن بقي حتى يرد الأمانات والودائع إلى أهاليها ؟

عندما استقر رأي قريش على : (أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شابا جلدا ، نسيبا وسيطا فيهم .. يضربونه ضربة رجل ... فيتفرق دمه في القبائل كلها ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فيرضوا بالعقل الدية.

تفرق القوم على هذا وهم مجمعون له ، وهنا أتي جبريل على جناح السرعة بأمر إلهي إلى محمد : (لا تبت على فراشك الذي كنت تبيت عليه) فلما كان العتمة من الليل ، اجتمعوا على بابه فترصدوه .. فلما رأى رسول الله (ﷺ) مكانهم ، قال لعليّ بن أبي طالب : (نم على فراشي ، واتشح ببردي الحضرمي الأخضر ، فإنه لا يخلص إليك شيء تكرهه منهم) وكان رسول الله ينام في برده ذاك إذا نام.

زاد بعضهم .. وقال له : (إن أتى ابن أبي قحافة ، فأخبره أني توجهت إلى ثور ، فمره فليلحق بي ، وأرسل إليّ بطعام ، واستأجر لي دليلا يدلني على طريق المدينة ، واشتر لي راحلة ، ثم مضى رسول الله ، وأعمى الله أبصار الذين كانوا يرصدونه عنه ، وخرج عليهم رسول الله (ﷺ)[1].

نجى الله نبيه محمداً وعلياً كما نجى الله موسى وهارون من فرعون وقومه، كما جاء في التنزيل : (... قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ

(١) تاريخ الطبري ٢ / ٣٧٢.

إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ[1]).

استخلف الرسول (ﷺ) مكانه أخاه ليلة الهجرة إلى المدينة ، تلك الهجرة التي كانت مفصلا مهما في حياة المسلمين وتاريخهم ، كما أنه استخلفه وكلفه بأمر آخر شديد الأهمية ، هو أن : (يؤدي عن رسول الله الودائع التي كانت عنده للناس ، وكان رسول الله (ﷺ)ليس بمكة من عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده ، لما يعلم من صدقه وأمانته[2]).

ولقد كان محمد عند حسن ظن الجميع به ، لم يفارق مكة قبل أن يكلف ابن عمه برد كل هذي الأمانات إلى أصحابها ، وكان في مبيت عليّ مكان ابن عمه وإنابته في رد الأمانات إلى أهليها إشارة إلى خلافته في قومه ، كما خلف هارون أخاه موسى في قومه.

٢- وانظر إلى حادثة غزوة تبوك سنة ٩ من الهجرة ، لقد استخلف الرسول (ﷺ) ابن عمه علياً ، استخلفه في أهله ، وأمره بالإقامة فيهم ، فأرجف به المنافقون : (ما خلفه إلى استثقالا له وتخففا منه) فلما قال ذلك المنافقون، أخذ عليّ سلاحه ، ثم خرج حتى أتى رسول الله، وهو نازل بالجرف - على بعد ٣ أميال من المدينة - وإلى الشمال الغربي منها ، دار بينهما الحوار التالي :

عليّ : يا نبي الله ، زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أنك استثقلتني، وتخففت مني.
النبيّ : كذبوا ، ولكنني خلفتك لما تركت ورائي ، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك ، أفلا ترضى - يا عليّ - أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدي.

---

(١) ٣٥ القصص.
(٢) سيرة ابن هشام ١ / ٤٨٥.

وهنا رجع عليّ إلى المدينة ، ومضى رسول الله (ﷺ) إلى سفره[1].

والآن نشير إلى عدة استنتاجات :

أ ـ كانت خلافة عليّ للنبي عند الهجرة في حدث مفصلي مهم ، هو هجرته (ﷺ) وانتقاله من مكة إلى المدينة ، نام مكانه ، افتداه بنفسه ، استخلفه لرد الأمانات إلى أهلها .

وعندما استخلفه في غزوة تبوك على أهله كان هذا في وقت مهم ، كان في عام ٩ هـ ، قبيل وفاته (ﷺ) التي كانت في ١١ هـ ، بينهما أقل من حولين ـ عامين ـ هجريين ، وكانت هذى إشارة مهمة للمسلمين .

ب ـ وانظر إلى المناسبة التي قال فيها سيد الخلق: (أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى) ودقته الشديدة في أن يعلن له بصراحة : (إلا أنه لا نبي بعدي) أي أن علياً سيأخذ كل الصلاحيات التي كانت لهارون مع أخيه ، ومنها ، أو من أهمها أن يخلفه في قومه ، كما خلف هارون موسى في قومه ، فكل هذا لم يك مصادفة.

جـ ـ وانظر عزيزي القارئ ـ إلى قولة المصطفى : (واخلفني في أهلي) أهل محمد (وفي أهلك) أهل عليّ ، فكما سوى القرآن بين آل هارون وآل موسى ، فإن محمد يقول لعليّ (أهلي وأهلك) .

ونتساءل في ختم هذا كله عن العلاقة والمنزلة التي كانت لعليّ عند أخيه محمد ، وأنها كانت بمنزلة هارون من موسى ، نتساءل : ماذا كان موقف عليّ من الخلفاء الراشدين من بعده ؟ فنقول :

---

(١) السابق ٣ / ٥٢٠.

عندما مات سيد الخلق (ﷺ) ضحى الاثنين ١٢ ربيع الأول، سنة ١١ هـ انشغل أخوه ووصيه (ﷺ) بتجهيزه ودفنه ، ثم فوجئ بأن الناس اختاروا أبا بكر (ﷺ) خليفة على المسلمين ، بقي عليّ ستة أشهر لا يبايع حتى ماتت زوجه فاطمة بنت محمد (ﷺ) وعندما ذهب إلى أبي بكر قائلا له بعد التشهد: ((إنا قد عرفنا يا أبا بكر - فضيلتك ، وما أعطاك الله ، ولم ننفس عليك خيرا ساقه الله إليك، ولكنك استبددت علينا بالأمر، وكنا نرى لنا حقا لقرابتنا من رسول الله (ﷺ))...)) ثم قال له: (موعدك العشية للبيعة) .

ثم تقدم عليّ (ﷺ) لبيعة أبي بكر في المسجد ظهر اليوم التالي، مشيرا بعد أن استغفر وتشهد إلى تعظيم حق أبي بكر وأنه لم يحمله على الذي صنع نفاسة على أبي بكر ، وإنكارا لفضله ، لكننا كنا نرى لنا في الأمر نصيبا، فاستبد علينا به، فوجدنا في أنفسنا [1] .

وأرى - وهذا اجتهاد منيّ أن علياً لم يبايع حفاظا على رضا فاطمة زوجه - التي قال عنها رسول الله (ﷺ) :

- فاطمة سيدة نساء أهل الجنة .
- رضا فاطمة من رضاي وسخطها من سخطي .
- فاطمة بضعة[2] مني ، فمن أغضبها أغضبني [3] .
- فاطمة بضعة مني ، يسرني ما يسرها [4] .
- إن الله فطم ابنتي فاطمة وولدها ومن أحبهم من النار[5] .

---

(١) قلهجي : ص ٢٦٩ - ٢٧٠

(٢) بضعة : قطعة .

(٣) صحيح البخاري ١١٩/٦ ، ١٢١ .

(٤) المقريزي : فضل آل البيت ، ص ٥٢ .

(٥) السابق .

ولكن الإمام ترك الأمر ، ولم يخرج عن طاعة أبي بكر (ﷺ) بل كان له موقف مشهود ، لا يقارن به موقف أو رجل ، إلا عليّ أخو النبيّ :

خرج أبو بكر يوم الردة شاهرا سيفه راكبا راحلته ، فجاء عليّ ـ عليه السلام ـ فأخذ بزمام راحلته قائلا : أقول لك ما قال رسول الله (ﷺ) يوم أحد : شم سيفك ، لا تفجعنا بموتك

فوالله ، إن أصبنا بك

لا يكون للإسلام بعدك

نظام أبدا .

ولو كان عليّ يريد بالخليفة شيئا لتركه يخرج للمرتدين ولعله يُقتل ، فيخلو الجو للآخرين ، ولكن عليا كان أكبر من هذا وأعظم .

ليس مع أبي بكر حدث هذا ، بل كان لأخي النبي ذات الموقف مع عمر بن الخطاب عندما استشاره في الخروج بنفسه إلى الفرس ، فقال أخو النبي المصطفى المصفى من القذى :

إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ، ولا قلة ... وإن الأعاجم إن ينظروا إليك غدا يقولون : هذا أصل العرب ، فإذا قتلتموه استرحتم ، فيكون هذا أشد لكلبهم عليك ، ومطمعهم فيك .

بل وقف عليّ إلى جانب الخليفة الثاني يشير عليه بالرأي السديد والفتوى الصائبة في كل حال حتى قال عمر : (لولا عليّ لهلك عمر ـ اللهم لا تنزل بي شديدة إلا وأبو الحسن إلى جنبي) لقد كان عمر على حق تماما حين أمر أن لا يفتي أحد بالمسجد ، وعليّ حاضر ، فجعل القضاء وقفا عليه في ساحة القضاء .

وهذى بعض أقضيته (ﷺ) نقبس بعضها :

أ ـ أودع قرشيان مائة دينار لدي امرأة من قريش، على ألا تدفعها لأحد ، دون الآخر، ولبثا عاما ، ثم جاء أحدهما ، وادعى أن الآخر مات ، فدفعت إليه المال، وجاء الآخر الذي ادعى صاحبه أنه قد مات ، فأخبرته أنها دفعت المال لصاحبه، فترافعا أمام عليّ الذي أدرك بثاقب نظره أن الرجلين مكرا بالمرأة ، فقال الإمام للرجل : ألستما قلتما لها لا تدفعي لواحد ، دون صاحبه ؟

قال : بلى ، قال : اذهب فجئ بصاحبك ، فذهب ولم يرجع.

ب ـ وجيء عمر يوما بامرأة أقرت بالزنا ، فأمر برجمها ، لكن علياً بنظره الثاقب قال : (لعل بها عذرا) ثم قام باستجوابها على النحو التالي :

عليّ : ما حملك على ما فعلت ؟

المرأة : كان لي خليط ـ شريك ـ وفي إبله ماء ولبن ، ولم يك في إبلي ماء ولا لبن ، ظمئت واستقيت فأبى أن يسقيني حتى أعطيه نفسي ، فأبيت عليه ثلاثاً، فلما ظمئت ، وظننت نفسي ستخرج أعطيته الذي أراد فسقاني.

عليّ : الله أكبر : (فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)[1].

وفي عهد عثمان (ﷺ) جاءوا بامرأة حملت ووضعت بعد ٦ أشهر من الزواج ، اتهموها بالزنا ، وتهيئوا لرجمها ، ويتساءل عليّ (عليه السلام) ما الدليل على الزنا ؟ يجاب : الحمل ستة أشهر فقط ، ويرد أخو النبي بهاتين الآيتين :

- (وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً[1]) الحمل والرضاعة = ٣٠ شهرا ، أو سنتان ونصف.

---

(١) ١٧٣ البقرة .

- (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ[٢]) مدة الرضاعة = حولين (عامين هجريين) كاملين أو ٢٤ شهرا.

وبحسبة بسيطة : الرضاعة والحمل = ٣٠ شهرا

الرضاعة فقط = ٢٤ شهرا

الحمل فقط = ٦ أشهر

إذن من الممكن أن تتدنى مدة الحمل إلى ٦ أشهر فقط ، وتكون الولادة بعد ٦ أشهر فقط من الزواج ، وعندما سمع عثمان هذى الآيات قال : (والله لكأنما أسمع هذه الآيات لأول مرة).

ظل عليّ (عليه السلام) يؤدي دوره مفتيا وقاضيا ، في خدمة الأمة ، ولا يدخر جهداً في نصح الراعي أو الرعية حتى كانت فاجعة مقتل عثمان (رضي الله عنه) مع كل الجهود التي بذلها أخو النبي لمنع الكارثة ، ولكن قضاء الله سبق ، وقتل الخليفة الثالث سنة ٣٥ هـ ، رضي عنه وأرضاه.

وقد يتساءل بعض القراء ، لم سكت أخو النبي ووصيه ولم يخرج عن طاعة الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه ، وقد قال له أخوه (صلى الله عليه وسلم) :

أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنك لست بنبي ، إنه لا ينبغي أن أذهب إلا وأنت خليفتي[٣].

إن هذا يذكر بعتاب موسى لأخيه هارون ومبررات الأخير ـ كما سلف ـ في

(١) ١٥ الأحقاف .
(٢) ٢٣٣ البقرة .
(٣) قلعجي : ص٥٨.

الخاتمة

وفي الخاتمة نقول : إن هذى الدراسة هي دراسة قرآنية في المقام الأول والأساس والرئيس فهي معتمدة متكئة على هذا الكتاب العزيز ، الذي يبث الحوار في ثناياه ، وفي كل سوره وآياته.

لقد خرجت من هذه الدراسة بقناعة مهمة هي أن القرآن الكريم هو كتاب محاور ، بل هو كتاب الحوار الأول والأهم في هذى الدنيا ، ولذا فإن الدرس المهم في حياتنا أن نعلي من شأن الحوار في علاقتنا بالآخرين من حولنا.

انظر إلى موسى عليه السلام عندما أمر بالرسالة إنه يحاور ربه قائلا : (...وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي ۞ هَارُونَ أَخِي ۞ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۞ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ۞ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً ۞ وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً ۞ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً ۞ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى[1]).

وتستمر الآيات في اتباع أسلوب الحوار ، وذاك بين الله وبين الأخوين :

- اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ، فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى.
- قَالا : رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى.
- قَالَ : لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى.
- فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا[2] رَبِّكَ....

وهكذا يستمر الحوار ، أو يستمر الأسلوب القرآني في الحوار حتى نجد قرآننا - في البدء والنهاية - هو حوار في حوار في حوار.

(١) ٣٦ طه.
(٢) ٤٧ طه.

وإن أروع مثل للحوار في القرآن هو حوار مؤمن آل فرعون في سورة غافر، حوار مسهب ومفصل، طويل النفس جدير بأن نقتدي به في حياتنا مع الناس، مهما كانوا معارضين مناقضين لنا ومختلفين.

والشيء الثاني الذي نؤكده أن هذى دراسة قرآنية موضوعية ، لا تتحرف لطائفة ، أو تنحاز إلى فئة ، إنما هي مع الدليل خاصة من القرآن تميل معه حيث يميل.

ومثال آخر للحوار في إطفاء نار الفتن ، وكانت اشتجرت بين جارين مسلمين بدء القرن التاسع عشر الميلادي هما إمبراطورية صكتو - في غرب نيجيريا الآن - ودولة (بورنو) التي كانت تقع في منطقة تشاد ، وقد قاد هذا الحوار الهادئ زعماء الدولتين ، وكانوا من العلماء الأعلام ، وهمُو : مؤسسو إمبراطورية صكتو ، عثمان بن فودي (ت ١٨١٧م) وأخوه عثمان ، ومحمد بللو بن عثمان بن فودي ، وبين عالم برنو (محمد الأمين الكانمي) رحمة الله عليهم أجمعين ، وبالفعل تمكن الحوار من إنهاء الحرب الشرسة التي شجرت بين الدولتين الجارتين[1].

ولذا ففي هذى الأوقات العصيبة التي يمر بها العالم الآن فإن الحوار - على صعوبته أحيانا وأحيانا - إلا أنجح الوسائل في إطفاء الشحناء والخلاف بين الناس ، فإن أعداء البشر - أي بشر - يعملون ليل نهار على تعميق الفرقة بين الأمم والشعوب والأفراد ، معلين ومعلنين شعار كل الفراعين : (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً).

---

(١) أبو الخير : قضية التكفير في الحوار بين الإمام الكانمي وعلماء صكتو ، مؤتمر الفلسفة بكلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ٢٠٠٥.

وبعد هذي الرحلة المطولة مع موسى وهارون ومؤمن آل فرعون وآسية وزوجها الفرعون ، هلا جئت معي عزيزي القارئ إلى وقفة مع النفس ، محاسبة لها قبل أن نحاسب في الآخرة والأولى :

١ـ انظر في نفسك أخي القارئ أختي القارئة ، هل في النفس شيء من صفات الفرعون ، ولتكُ لدينا الصراحة والشفافية مع أنفسنا حتى نبرأ من عقاب الله في الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد ، هل تجد أو تجدين في نفسك صفة من الصفات المؤدية للتخلف والمعوقة للتقدم ، كما كان فرعون ، هل فينا شيء من :

- البعد عن الرشاد .
- الخطأ والبعد عن التوفيق .
- التكذيب للرسل والصالحين ، أو الكفر ، أو الظلم .
- الطغيان .
- الفسق .
- العلو والاستكبار ، والإجرام .
- التطاول على الآخرين .
- البغي والعدوان .
- تعذيب الناس أو إيذاؤهم .
- محاولة الإيقاع ـ التأريش ـ بين الناس .
- الإفساد .
- الاستبداد بالرأي ، ما رأيكم إلا ما أرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد .
- الاستخفاف بعقول الناس وأفهامهم .

- التعبئة والكيد ضد الآخر - أي آخر - خاصة من المحيطين بك ، والتحريض عليهم عند ذوي السلطان .
- هل تلفق الاتهامات ضد الآخرين ؟ .
- هل تعرف الحق ، ثم تنصح بغيره ؟ .
- هل يوافق لسانك فعلك وعملك ، أم ينطلق لسانك حلوا تحدثا عن القيم والأشياء التي لا تؤمن بها ؟
- ثم هل تقف من أخيك في الدم أو الدين أو الخلق والإنسانية موقف الموضوعية والإيثار ، كما صنع موسى مع أخيه هارون ، عليهما السلام ؟
- وأنت أيتها الزوجة المؤمنة هل تتعايشين مع زوجك الذي لن يكون مثل فرعون ، أم أنت دائما ساخطة ومتبرمة ، وهل ترين أن زوجك لم يحسن إليك قط ؟ فكري وراجعي نفسك قبل يوم الحساب العسير أمام رب السماوات والأرضين .
- وأنت أيتها الزوجة ، وأيتها الفتاة المؤمنة الطاهرة ، من قدوتك في هذي الحياة ؟ قدوتك هن (آسية امرأة فرعون - مريم بنت عمران - خديجة بنت خويلد - فاطمة بنت محمد) رضي الله عنهم جميعا وأرضاهن ، وأرضاهم .

وقبل النهاية يجب أن نقول : إن المجتمع وكل فرد فيه يتحمل مسئولية ما يقع عليه من ظلم وغبن ، فلنقل هو المسئول الأول عن كل ما يحدث له ، صحيح هناك تآمر ومكائد ودفع للناس إلى الظلم والفقر والقهر ، ولكن كل هذا لا يعفي المستضعف والمظلوم من مسئولياته تجاه نفسه وأسرته وبلده ومجتمعه ، ففي التنزيل : (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ

مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً ۞ إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ۞ فَأُوْلَـئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوّاً غَفُوراً [1]).

إذن هناك استثناء فقط للمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ـ الأطفال ـ شرط أن لا يجدوا حيلة ، ولا يهتدون سبيلا ، وهنا : عسى الله أن يغفر لهم ، عسى الله ... ولعله لا يغفر ، لكنه هو العفو الغفور ، وفي جميع الأحوال.

على أي الأحوال فإن المؤمن والمؤمنة إذا أحاطت به الصعاب والمشكلات فعليه ـ برغم كل هذا ـ أن يستعين بالله ، ولا يعجز ، ولا ييأس من رحمة ونسائم فضله .. (وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ [2]) وعليه أن يوقن أن الفرج والنصر له وللخير آت آت ، بأمره ـ تعالى ـ وتوفيقه.

وأخيرا ، أخيرا تسعد هذه الدراسة وتسعى للنقد الناصح والملاحظ المتأنية والموضوعية ، غير متصيدة لهنة هنا أو زلة هنالك ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ، وصلى الله على محمد وعلى آل محمد في الأولين والآخرين.

خادم العربية
أحمد مصطفى أبو الخير
رئيس قسم اللغة العربية
جامعة المنصورة
٢٠٠٧/٩/٢٢
www.geocities.com/abu_elkher
www.askzad.com
abu_elkher@yahoo.com

---

(١) ٩٧ ـ ٩٩ النساء.
(٢) ٨٧ يوسف.

المحتويـــــات

هذا الكتاب

في هواجر هذي الحياة الشائكة التي تزدان بالمرارة والصعاب نرجع إلى قرآننا نستروح قليلا مع القصص الكريم ، نستلهم منه الرشد والصواب ونستضيء ونقتبس من هديه القويم .

هذي قصة فرعون وأخلاقه نتعلم منها كيف نعصم أنفسنا من هاتيك الأخلاق الرزية المعوقة للتقدم المؤدية للتخلف حتما وقطعا ، بل الهلاك والدمار ، كما حدث لفرعون ومن معه .

ونتأسى بهارون وموسى ـ عليهما السلام ـ في علاقة الأخوة والمودة والإيثار ، والموضوعية أيضا ، هما مضرب مثل في التاريخ البشري كله : (...وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ) ـ (وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي ، هَارُونَ أَخِي ، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي) .

كما تتأسى نساؤنا وحريمنا بمن كمل من النساء أيضا ، آسية امرأة فرعون أروع نموذج للتعايش بين زوجة مؤمنة صابرة عند رجل هو الفرعون ، وكمل من النساء أيضا : مريم ابنة عمران ، وفاطمة بنت محمد ، وخديجة بنت خويلد ، وهؤلاء الأربع أيضا هن أفضل نساء أهل الجنة ، رزقنا الله إياها ومتعنا بها ، اللهم آمين ، اللهم آمين ، يا رب العالمين .

أحمد مصطفى أبو الخير

خادم اللغة العربية